الغنيـــــمة البـــاردة
في ترجمة سيدنا الوالـد وسيدتنا الوالـدة

تـــألـــيـــف

العلامة القاضي سيــدي أحمد سكيرج
رحمــــه الله و رضي عنه

تحقيق
ذ: محمد الراضي كنون الحسني الإدريسي

رقم الإيداع القانوني	97/1326
ردمك	9981 - 153 - 02 - 8
حقوق الطبع محفوظة	
مطبعة	
المؤلف	محمد الراضي كنون
الهاتف	01 39 21 98
	07 65 14 00

الغنيمة البـاردة[1]
في ترجمة سيدنا الوالد وسيدتنا الوالدة

الحمد لله، يقول كاتبه عبد الكريم ابن مؤلف هذه الترجمة رحمه الله و رضي عنه: إن سيدنا الوالد كان أخَّر مقدمة هذا التويليف إلى أن ينتهي من جمع ما أراد إثباته فيه. فلم يتيسر له ذلك. ولهذا أبتدئ كما يلي:
وقد استعملت أرجوزة ضمنتها ترجمة سيدنا الوالد المتوفى قرب عصر يوم الأحد رابع جمادى الثانية عام 1328هـ رحمه الله واقتصرت فيها على النزر اليسير من أحواله، ولا بأس بذكرها هنا بنصها، وهي هذه:

حمدا لمن هو العلـي الله الأحـد — وهو المهيمن القوي الله الصمد
ولم يلـد ولم يكـن مـن ولـد — ولم يكـن كفؤا لـه مـن أحد
ثم صلاته على الهادي الرسـول — وآلـه وصحبـه أهـل الوصول
ورضـي الله عـن الاتبـاع — ووالـدي المجـد فـي الانتفـاع
ورحم الله الـذي لـي قد دعـا — مع والـدي ولنفعنـا سعـى
وبعد فالمقصـود من هذا الرجـز — ذكرى لترجمـة والـدي الأعـز
نظمته لغرض لـي قد عـرض — أداؤه علـيّ حـق مفتـرض
ولم أرد بـه تبجحـا ولاَ — فخرا بـه على سواه في المـلا
والله أرجوا أن يـديم نفعـه — وأن يحلـي في العيون صنعـه
فيقتفـي أثـري الأبنـاء — فـي حفظ مـا خلفـه الأبـاء
وها أنا ذا شارع في نظم مـا — قصـدته وبـالقبول ختمـا

نشـأتـه

قد نشا الأرضى أبـي العيـاشي — عند أبيـه في ثيـاب جـاش
وناظرا لـه بنظرة الرضـى — ولم يكن بفعلـه معترضـا
لأنه يسرّه مـا سرّه — مبدلا باليسر منـه عسره
وهكـذا نشـأ مع والـده — طبق الذي يتلوه من شاهـده
ولم يزل معتنيـا بأمـره — وسامعـا لنهيه وأمـره
وصرف الوجهـة في تعليمـه — بـكـل ما دل على تعظيمـه
وكان أول بنيـه الأحيـا — مخصصـا من بينهم بأشيـا
فحفظ البعض مـن القـرءان — وفاق بالذكـاء في الأقـران
ثم تولـع بصنعة أبيـه — وفـاق فيها عنده كل نبيـه
فعاش والـدي بكدّ يـده — برفع همـة لنيـل قصـده
معلما إخوته ممـا علـم — وجمعهم من التصنـع سلـم
ولم يـدع والدي الدروسـا — مع شغلـه الذي وقاه بوسـا
فقرأ العلم علـى شيـوخ — فيـه لديهم قـدم الرسـوخ
وكان يهـوى العلم والأعلامـا — وفي ذراهم نشـر الاعلامـا

[1] يعود تاريخ نظم هذه الأرجوزة إلى نفس السنة التي توفي فيها والده و هي سنة 1328 هـ_1910م.
ومن البديهي أنه كتبها بمدينة طنجة، إذ أنه لم يعد لفاس إلا في مطلع السنة الموالية لها 1329 هـ_1911م.
و اغتناما للنفع فقد أضاف نجل المؤلف الأديب سيدي عبد الكريم سكيرج لِهذه الأرجوزة بعضا مما يناسبها من قصائد والده ذات الصلة بالموضوع نفسه.

ترجمة شيخـه الفقيــه
سيـدي محمد بن الهاشمي[1]

وكان عمدة أبي ابن الهاشمــــي … مفيد كل جاهل وعالــــــــم
أخبرني عنه أبي بأخبـــــــــار … دلت على مقامه في الأحبـــار
وكان شيخا من شيوخ التربيـــه … يشفي بسره العيوب القلبيـــه
وكان من عادتـــه في التعليــم … حل العبارة لأجل التفهيــــم
وكان يختصــــر بالرمــــوز … ما عدّ من مفاتح الكنـــــوز
مقربا بالرمز بعض الأحكـــام … مع مسائل بكل إحكـــــــام
حتــــى غدت بذلك العـــوام … نفعهم من أجل ذاك تــــــام
ووالـــدي لازمــه زمـانـــا … ففاق في زمانه الأقـــــرانـا
وأنه النور المحمـــدي الـــذي … بيده أخذ خير مأخــــــــذ
عليــه قد أخذ علم الفقه مــــع … ما جاء في سير خير متبـــع
و لا يفارق حضور درســـــه … في أي وقت فيه طيب نفســـه
فكان من بين العشأين لــــــه … درس من الفقه الذي حصلــه
وكان يحضر لديه في السيـــر … بعد صلاة العصر في وقت غبر
وذاك أن الشيخ قال يومـــــا … مالي أرى لا يحضروني قومـا
سمعت عنهم من المســــاوي … حضورهم بمجلس الفــــراوي[2]
هيا بنا غد لسرد الواقــــدي[3] … فضمنه عجائب المشاهــــد
هيا بنا فنقرأ الكلاعـــــــي[4] … أولى من الجمع بلا انتفـــاع
فحضروا لديه بعد العصــــر … وظفروا منه بشرح الصـــدر
وبعدما استجلب بعض الحاضرين … بذكره معارك المجاهديــــن
فانتقلوا من الخرافات إلــــى … معرفة الأخبار مما نقـــلا
وهكذا الشيوخ يعملونـــــا … لرفع قدر من يعلمونــــــا

---

[1] المراد به العلامة الفقيه سيدي محمد بن الهاشمي السلاوي، توفي سنة 1322 هـ، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع لابن سودة 1: 362. موسوعة أعلام المغرب 8: 2837.

[2] محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي فقيه محدث من أهل نيسابور و بها كان مولده سنة 441 هـ. له مؤلفات مفيدة منها المجالس الملكية في الوعظ و التذكير. توفي سنة 530 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 6: 330. معجم المؤلفين، لكحالة 11: 127. إيضاح المكنون، للبغدادي 2: 249. هدية العارفين، للمؤلف نفسه 2: 87. شذرات الذهب، لابن العماد 4: 96.

[3] محمد بن عمر الواقدي من أقدم المؤرخين في الإسلام. من مصنفاته المغازي النبوية. و فتح العجم. وفتح إفريقية. و أخبار مكة. و كتاب صفين. و مقتل الحسين. و فتوح الشام. و غيرها. توفي سنة 207 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 6: 311. معجم المؤلفين، لكحالة 11: 95_97. تاريخ بغداد 3: 3_21. ميزان الإعتدال للذهبي 3: 110_111.

[4] سليمان بن موسى الكَلَاعي محدث الأندلس و بليغها في عصره. له مؤلفات كثيرة. توفي سنة 634 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 3: 136. معجم المؤلفين، لكحالة 4: 277. شذرات الذهب، لابن العماد 5: 164. تذكرة الحفاظ، للذهبي 4: 202_204. كشف الظنون، لحاجي خليفة 2: 1706. فهرس الفهارس، للكتاني 1: 488_489 رقم 280.

ترجمة شيخه الفقيه سيدي الحـاج محمد كنــون[1]

وكان يحضر لدى كنـــــــون شيخ الجماعة أبي الفنـــــون
وهو الرضى محمد بن المدنـــي صاحب الاختصار[2] والدر السني
كان أبي منوها بقـــــــــدره وما به يفيض بحر صـــــدره
وقال لي لم تر عيني مثلــــــه في الحفظ والسر الذي حصلـه
وكان من أحواله في درســـــه يغيب في إملائه عن حســـــه
والناس كلهم له قد سلمـــــوا وفضله بين الجميع يعلـــــم
ووالدي حضر في مجالســـــه وكم تلقى عنه من نفائســـــه
يحضرها بعد صلاة الصبـــــح وفاز من حضورها بالربـــــح
حدثني عنه بما أبرى العليــــل وما به أبرد غلة الغليـــــــل

[1] سبق التعريف به ضمن الجزء من هذه الرسائل.
[2] المراد به اختصار حاشية الرهوني على مختصر خليل.

ترجمة شيخه الفقيه
سيدي التهامـــي كنون[1]

وبعده بسيدي ابن رحمـــــــون حضر في درس التهامي كنـون
وكم حضرت مع والدي بــــــه وما ارتويت من لذيذ شربـــه
وكان والدي له معظمـــــــــا منوها بشأنـــه في العلمـــــا
وعنه قد أخذ علما جمـــــــا فيه لنا ضرب منه سهمـــــا
فكـــان والدي يبث فينــــــا مما استفاده هدى يقينـــــا

---

[1] فقيه محدث مدرس. من أعلام مدينة فاس. ينسب إلى أسرة أولاد كنون. أحد أبرز البيوتات العلمية بالمدينة المذكورة. و الثابت في نسب هذه الأسرة أنهم شرفاء حسنيون من نسل القاسم بن المولى إدريس الثاني باني مدينة فاس. كما أنهم ذووا صلة عميقة بأبناء عمومتهم القاطنين بقبيلة بني مستارة. و ذلك حسبما وقفت عليه من عقود و تقاييد و ظهائر عديدة. أما المترجم فقد اشتغل منذ السنين الأولى من عمره بطلب العلم. فأظهر فيه نبوغا عظيما و نجابة غير معهودة. و قد أسهمت في تكوينه نخبة من كبار علماء فاس إذ ذاك. في طليعتهم شقيقه العلامة الشيخ سيدي محمد بن المدني كنون. و هو عمدته.
و بانتهاء فترة تحصيله تصدر مترجمنا للتدريس بأكابر مساجد فاس. لا سيما منها جامع القرويين المبارك. فكان ممتعا في تدريسه. جوهري الصوت. حسن الصورة. تأتي الناس لحضور مجالسه العلمية من الحومات البعيدة. نظرا لسلامة أسلوبه الذي يقوم على تبسيط المعنى و تسهيل الشرح و تقريبه أكثر ما يمكن للأذهان.
و له مؤلفات كثيرة منها: إرشاد المسافر للربح الوافر. و أربعون حديثا في فضل الجهاد. و أربعون حديثا في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم. و أربعون حديثا في فضل حج بيت الله الحرام. وأربعون حديثا في الزكاة. و أربعون حديثا في فضل صيام رمضان و قيامه بإخلاص و نية. و أربعون حديثا في فضل الصلاة و المحافظة عليها و آدابها في وقتها و في الجماعة. و أربعون حديثا في فضل يوم الجمعة و بركاتها المذخرة لهذه الأمة المحمدية. و أربعون حديثا في فضل الهيللة. و قرة العيون بشرح نظم ابن يامون في آداب النكاح. و هدية المحبين إلى ذكر مولد سيد المرسلين. و تعليق على كتاب الشفا للقاضي عياض سماه: المنهل الصافي. و تعليق مختصر على كتاب الموطأ سماه: أقرب المسالك. و تعليق على صحيح الإمام البخاري. و آخر على صحيح مسلم. و إرشاد الخلائق لآداب زيارة منبع الحقائق. إلى غير ذلك من مصنفات أخرى.
توفي بفاس بتاريخ يوم الخميس 7 رجب عام 1331 هـ_12 يونيه 1913م. و دفن بالقباب خارج باب الفتوح. بجانب قبر أخيه العلامة الشيخ محمد بن المدني كنون.
أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 404. دليل مؤرخ المغرب الأقصى، للمؤلف نفسه 1: 183 رقم 694. معجم الشيوخ، لعبد الحفيظ الفاسي 1: 127_128 رقم الترجمة 53. معجم المطبوعات المغربية، للقيطوني 66_68 رقم 166. الأعلام، للزركلي 6: 65. الدرر البهية و الجواهر النبوية، للفضيلي 2: 370. مختصر العروة الوثقى، للحجوي 53. موسوعة أعلام المغرب 8: 2876. معجم المطبوعات، لسركيس ص 717. الأعلام الشرقية 2: 271. معجم المؤلفين، لكحالة 9: 139. الدر المكنون في التعريف بالشيخ جنون، للمشرفي 110. إتحاف الأعيان بأسانيد العرفان، للعلامة سيدي حسن مزور 32. معلمة المغرب 20: 6833.

ترجمة شيخنا الشريف مولاي
إبـــراهيم اليـــــزيدي[1]

وكان يحضر أبي بمجلـــــــــس / مولاي إبراهيم محيي الأنفـــس
وهو الشريف العلوي اليزيـــدي / مزود المريد بالمزيــــــــــــد
وكان والدي به مشغوفـــــــــا / وقد غدا بسره معروفــــــــا
ألزمنا الحضور في مجالســـــه / لنقتني النفيس من نفائســــــه
وكم أخذنا عنه من علــــــــوم / مع الخصوص ومع العمــــوم
والفضل في ذاك لوالدي الـــذي / صيره لنـــا أجل منقـــــــــذ

[1] فقيه أديب مدرس. من أعلام مدينة فاس. و بها نشأ في عفاف و صون. تحت ظل والده الذي كان شديد الإهتمام بتربيته. عميق الحرص على تكوينه أحسن تكوين. فحفظ القرءان الكريم حفظا متقنا. متفننا في استظهاره رسما و ضبطا و تجويدا و غيره.
ثم تفرغ بعد ذلك لطلب العلم بجامع القرويين بفاس. فأخذ به عن جماعة من أكابر فقهاء ذلك الحين، كمحمد بن عبد الرحمان الفلالي. و محمد بن المدني كنون. و محمد بن عبد الواحد بن سودة. و أحمد بن أحمد بناني كلا و غيرهم.
و لم يبلغ العشرين من عمره حتى تمكن في علوم مختلفة. و بلغ شأوا عظيما في الفقه و الحديث و السيرة. و علوم الآلة و الأدب. و قد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من ذكاء خارق و مؤهلات نادرة.
و لدى انتهاء فترة تحصيله اتجهت رغبة مترجمنا نحو التدريس. فقطع في هذا الصدد أشواطا بعيدة. تميز خلالها بسعة اطلاعه. و قوة عارضته. و رسوخ علمه. مما سمح له بالظهور البين بين كافة العلماء المتصدرين للتدريس بالقرويين. و تخرج به جم غفير من الطلاب. و قد وقفت ببعض وثائقه الخطية على جرد بأسماء الكثير من هؤلاء. و هو أول مجيز للعلامة أحمد سكيرج ضمن شيوخه الذي يناهز عددهم السبعين شيخا. كما له تقاريض على كثير من كتب تلميذه المذكور. منها تقريضه على كتاب منهل الورود الصافي. و ذلك بقصيدة فائية افتتحها بقوله:

شرح الصدر شرح شاف يوافي / من بديع العروض صنع القوافي
و تحلى بعقد حمر اليواقيـــــــــــــــــــــــــــــت / به فخر جيد عاطل شافي

إلى أن يقول فيه:

حسن الوضع متقن الصنع يسلـــي / بضروب المغاني قلب المصافي
رائق الرصف فائق الوصف يملي / باللآلي الحسان جيب الموافـــي

و مما خاطبه به تلميذه المذكور قوله:

ألا أيها البدر المنير الذي سما / سماوات اجلال على كل ذي علـــــــو
و يا أيها الدر العزيز نظيـــره / لمستحسن الإخلاص في الحضر و البدو
تقلدنا من يم فضلك منــــــــة / جزاك المرجى للقبول و للعفــــــــــو
و زادك عزا دائما و جلالـــة / يفوق سناها البدر في أفق الجـــــــــو
عليك أيا بدر التمام تحيــــــة / من الله ما بين الورى فضلكم مــــــروي

و لا يفوتنا التنبيه على أنه من أعلام الطريقة التجانية. و له شرح على صلاة جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال. توفي يوم الإثنين 3 رمضان المعظم عام 1322هـ_11 نونبر 1904.
أنظر ترجمته في قدم الرسوخ، للعلامة سيدي أحمد سكيرج رقم الترجمة 13. فهارس الشيوخ لصاحب قدم الرسوخ، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). تطييب النفوس بما كتبته من بعض الدروس و الطروس، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). نسمات الأسحار في نظم الأشعار، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). موسوعة أعلام المغرب 8: 2835. إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 360.

بيان معارفه وفنونه

كان أبي يتقن علم التوحيد   مؤيدا فيه بكل تأييد
وكان عارفا بعلم الفقه مع   بعض النوازل التي بها انتفع
لاسيما مسائل الأحكام   وجل ما ينزل بالحكام
فإنه له التضلع القوي   وما به نهج نهجه السوي
وكان يتقن فرائد الحساب   وكان يحسن فرائض الكتاب
وكان ذا علم بفن الألغاز   بنوع إطناب ونوع إيجاز
وكان عارفا بفن الملحون   وفيه قد زاحم أهل الموزون
له قصائد من الأزجال   في الوعظ قد تمت بحسن الحال
وشهدت له شيوخ الموهوب   بأنه قد نال فيه المطلوب
من بعد ما قارع منهم من قرا   ومن به في الشعرا تصدرا
ولم يكن يميل للبطاله   بل ألزمته نفسه أشغاله

حرفته الطرازية

تقلب الوالد في بعض الحرف   من صغر لكبر بها احترف
من بعد ما تعلم القراءه   وسدد الله بها آراءه
ولم يكن مع العيال عاله   على أبيه عند ضعف الحاله
فكان في حرفته ممتازا   على سواه قد غدا طرازا
وهو صبي لا يميل للكسل   ولا يمل في القيام بالعمل
مشمرا عن ساعد الجد بما   صيره لغيره معلما
وكان مالكا لأمر نفسه   منذ صباه في رياض أنسه
وقد حكى لي أنه له وقع   في حالة الصغر ما به انتفع
مما به آدابه قد كملت   بعد امتحان نفسه التي علت
فقال لي كنت بشغلي قانطا   يوما فقمت كي أصير ناشطا
وقد غدوت لرياض زاهره   والنفس مني بالسرور ظافره
فعن لي أن أرتقي لشجره   عالية رأيت فيها ثمره
وقد رأيتها بغصن عال   والنفس في الصغر لا تبالي
ثم علوت فوق تلك الأغصان   والقصد دركها بما في الإمكان
وكنت في ذاك المحل وحدي   والنفس لاتردني عن قصدي
وبعد ما قطفتها التفت   إذ حية رقطاء منها خفت
قد قصدتني من غصون الشجره   فأطلقت يداي تلك الثمره
ثم سقطت من علو في فزع   و ليس عندي في الحياة من طمع
و قد سقطت بين جدري دوحتين   رأسهما كالسيف ماضي الجهتين
خرجت من بينهما بتعب   ولم يصب ذاتي أدنى عطب
فقمت قاصدا محل شغلي   والرأس مني بمصابي يغلي
وكان هذا دون نصف ساعه   وقع لي من تركي الصناعة
فقلت سبحان الذي نجاني   من الردى وكنت فيه الجاني
ولم أخاطر بعد ذا بنفسي   ولا تركت عملي ودرسي

تعاطيه لحرفة التجارة

وقد تعاطى حرفة التجـــــارة — وشد في مدتهـــــــــا إزاره
فصار عاملا بها وصــــــرع — نفسا إلى الخيربها قد ســـارع
كانت به تقوى على التقوى ومـا — مال إلى مال عليه حرمـــــا
مقابلا حرفته بالجـــــــــد — فيها وقد وقف عند الحـــــد
وكان يحضر مجالس العلـــوم — وقت الفراغ ونفى عنه الغمـوم
فاكتال من أسرارها بالأوفـــى — وهو روى منها المعين الأصفى
وكل من قد عرفوه شهـــــدوا — له بفضل دائما لايجحـــــد

خطته التوكيليـــة

وقد تعاطى حرفة الوكالـــــه — وأجرها قوى به اتكالـــــــه
قام مقام كل من وكلـــــــه — مقام صدق في الذي أم لــــه
ولم يزل مناضلا في الحـــق — يهدي لم من ضل بين الخلـــق
وكل من لم ير حقا معــــــه — يرشده لمـــا بــه نفعـــــه
يقول مالك من الدعوى التـــي — تقيمها غير العنا والمحنــــة
فإن صغى لقوله وأقلعــــــا — عما أراد لم يزل منتفعـــــا
وربما أعرض عن إشارتـــه — فلام نفسه لدى خسارتــــــه
فكان في المحكمة الشرعيـــه — يبدي لأحكام لها مرعيــــــة
ويقطع اللدد من أهل اللـــدد — وسالكا مع الخصوم للســـدد
فقصدته الناس في القضايـــا — وعنهم قد دافع الرزايـــــا
وكم لناس رفض التوكيـــلا — حين رآهم حاولوا التنكيـــلا
ولم يحاب أحدا في الحـــق — وكان نفعه بقول الصـــدق
حتى لقد عجب منه الخصمـــا — ولم يزل مقاله مسلمــــــا
وهو وإن لم يك ممن أدرجــوا — في طبقات علما تخرجـــوا
فهو له باع طويل في العلـــوم — به الخصوص انتفعوا مع العموم
وكم قضايا انعقدت فحلهـــا — ولم يكن سواه يدري حلهـــا
وكان مقصودا لدى النـــوازل — معتمد القول لدى المحافـــل
وذاك بعد حجه البيت الحـــرام — وعوده لنفس فاس باغتنـــام
وقد دعا الله به أن يجعـــلا — مصالح الناس لديه مسجـــلا
فكان من نتائج الدعــــــاء — أن كان مقصودا للإهتــــداء
يقصده البعيد والقريـــــب — لأن رأيه هو المصيــــــب

جهاده في الإسبان

وجاهد الوالد في الإسبــــان — عام خروجه إلى تطـــوان[1]
ولم يقصر في مطاردتهـــم — ومنهم كم قاد من قاداتهـــم
مازال يلقاهم بكل معتـــرك — وفيهم كم من مصائب تـــرك
وقد أصيب بين من أصيبـــوا — وكلهم في نصره مصيـــب

[1] للتوسع في هذا الموضوع أنظر الجزء الأول من هذه الرسائل حيث ترجمنا له فيه بإسهاب.

وبعد ما أصابه جـــــراح ... وعظمت من فقده الأتـــراح
جاء إلى مواقع القتلى أبــوه ... مع فتية من قومه فطلبــوه
فوجدوه بينهم كالميــت ... فحملوه وهو في تثبــت
ثم شفاه الله بعد مــده ... وكان ما كان لديهم بعــده
والأمر لله الذي كل الأمــور ... بيده لدى الورود والصــدور
وكم تعاهده برء جرحــه ... بألم حتى ارتقى في صرحــه[1]

حجه لبيت الله الحرام

حج أبي من بعد ما تزوجـــا ... ولم يكن بزوجه مبتهجـــا
وكان ماله الذي حج بـــه ... من كد نفسه وخير كسبـــه
ومعه أصحب بعد السلعـــه ... ببيعها بمصر نال نفعـــه
وباشر البيع بنفسه ولـــم ... يحتج لغيره لما به ألـــم
وقد أتم الحج بالزيـــاره ... وعاد وهو حائز بشـــاره
وبعد ما رجع فارق التـــي ... كان تزوج بها في نعمـــة
لأنها ما أحسنت في العشـــره ... وارتاح من فراقها بالمـــره
واستحسنت فراقها والدتـــه ... ولم تضق عن سعة مائدتـــه
وبعدها تزوج الفيلاليـــه ... أم أخي ذى الرتبة الاجلاليـــه
ثم تزوج أبي بأخـــرى ... فنال بين زوجتيه الســـرا
ثم تزوج أبي بأمـــي ... بإذن جدي بعد موت عمـــي[2]

زهده في الخدمات المخزنية

كان أبي معظما للمخـــزن ... لأنه به انجلاء الفتـــن
ولا يميل قلبه لفتـــان ... خرج في الأوطان عن ذي سلطان
وما تولى والدي في خطــه[4] ... ولم يضع على الخطايا خطــه[3]
وكم دعته الخدمات وهـــو لا ... يقبلها لأنه عنها ســـلا
وما تعلق بغيـــر الله ... لنيل شيء عند أولى الجـــاه
ومن عجيب ماله قد وقعـــا ... وكان فيه قصده نيل الدعـــا
فقال لي خرجت مع جماعـــه ... خارج فاس بين أولي الطاعـــه
لما أتى السلطان مولانا الحســن[5] ... أول مرة لها بعد الفتـــن

---

[1] صرحه: ضريحه و قبره.
[2] المراد به السيد الحاج محمد بن عبد الرحمن سكيرج، أخو سيدي العياشي صاحب الترجمة، توفي إبان شبابه عام 1294 هـ، و خلف ابنا اسمه محمد، و ذلك من زوجته السيدة (فروح) التي تزوجها بعد ذلك أخوه الحاج العياشي، فكان أول ما أنجبت له من الأبناء العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.
[3] الخط: الكتابة، و المعنى أنه لم يسبق له أن زاول شيئا من الخدمات و الحرف الساقطة، و لا وضع توقيعه عليها.
[4] خطة: مفرد خطط، و المراد بها الوظائف المخزنية.
[5] المراد به السلطان المولى الحسن الأول، توفي ليلة الخميس 13 ذي الحجة الحرام عام 1311 هـ، ودفن بالرباط بضريح جده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 322_323. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس 2: 115_549. الدرر الفاخرة، للمؤلف نفسه 97. الإستقصا، للناصري 9: 128_209. موسوعة أعلام المغرب 8: 2797_2798. الأعلام، للزركلي 2: 220_221.

وخرج الناس إلى لقيـــــاه ... مؤملين لهم رضــــــــــاه
وسار والدي مع الذي معـــــه ... لجهة الجيش الذي قد تبعـــه
فصادفوا السلطان في الطريــق ... منفردا عن ذلك الفريـــــق
فنزل الوالد عما ركبـــــه ... مستعملا مع الأمير أدبـــه
ثم تقدم له ورفعــــــــا ... يديه يطلب له منه الدعــــا
فرفع السلطان في الحين يديــه ... ووالدي مؤمن منه لديــــه
وبعدما فرغ من دعائــــــه ... رجع بالأدب من ورائـــــه
وسار والدي ولم يطلب ســوى ... دعائه طبق الذي منه نـــوى
فعجب السلطان من حال أبــي ... إذ لم يزد على الدعا من طلـب
وأمر السلطان بعض الخــدام ... أن يسألوه ما اسمه ومــا رام
فتبع الخادم في الحين أبـــي ... وقال ماسمك وهل من طلـب
فقال والدي أنا عبـــــد الله ... ومقصدي الدعا وقد تــولاه
فالله ينصر أمير المؤمنيـــن ... فارجع إليه ولتعش في الأمنيـن
فقال للوالد ذاك الخـــــادم ... ماسمك كي يسدي لك المكـارم
فقال والدي أنا مالي طلـــب ... وليس لي تشوف إلى الرتــب
فرجع الخادم وهو معجـــب ... بحاله وحق منه العجـــب

محبتــه لأهـــل الله
وبغضــه للإنكار عليــهم

قد كان والدي يحب الأوليــا ... ولم يزل بهديهم مقتديـــا
وكان فيه لهم حسن اعتقـاد ... ولا يميل للذي فيه انتقـاد
ودأبه التسليم والتفويـــض ... ولم يكن له بهم تعريـــض
وفيهم حببنا من الصغـــر ... بما حباه الله من حسن النظـر
وكيف لايحبهم وهم هــــم ... قد انجلى بربهم همهـــم
وهو المحارب لمن عاداهــم ... وهل نجا في الخلق من آذاهـم

تحذيره من الدنيا وعدم ثقته بها

كان أبي يعرف حال الدنيــا ... وحال من باهوا بها في العليــا
فكان منها دائما على حـــذر ... محذرا منها ببدو وحضـــر[1]
وقال لي أني أرى الدنيا التــي ... بها النفوس عن هداها ضلــت
كأنها عجوزة ضاع لهـــا ... ولدها الوحيد بين من لهـــا

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: يا جرير أحذركم الدنيا، و حلاوة رضاعها، و مرارة فطامها. إهـ.. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (عبد الله بن عباس رضي الله عنهما) 20: 107 رقم 15770. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 590 رقم 8601.
و كذلك لقوله صلى الله عليه و سلم: الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق) باب منه رقم 7366.
و رحم الله الشاعر ابن عبد ربه إذ يقول:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكـــة ... إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانب
هي الدار ما الآمال إلّا فجائــعٌ ... عليهَا و لا اللذاتُ إلا مصائـــبُ
فلا تكْتَحِلْ عينَاكَ منها بعبـــرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنَّك ذاهـــبُ
فكم أسخَنَتْ بالأمسِ عيناً قريرةً ... و قرَّت عيونٌ دمعُهَا اليومَ ساكبُ

وعينها التي بها تبصر فـــــي ... وسط رأسها ومكرها خفـــــي
تمشي فتعثر فتقبض علـــــى ... من عثرت فيه برفق في المـــلا
تظنه ولدها الوحيـــــــــدا ... وعنه بين القوم لن تحيـــــدا
ثم تضمه لصدرها وقـــــــد ... حنت عليه باشتياق قد وقـــد
ولم تزل ترفعه في الخلــــق ... بين يديها للعلى بالرفـــــق
وهي تظن أنه ولدهـــــــا ... وهو في غفلته يحمدهـــــا
حتى إذا أعلته فوق رأسهـــا ... وقد سقته في الهوى بكأسهـــا
ونظرت له ولم تجـــــده ... ولدها وهي لم تلـــــــده
رمت به من فوق رأسها إلـــى ... مهواة تهلكته منجـــــــدلا
تمت تعثر بغيره وقـــــــد ... ظننتـه أنه الوحيد المفتقـــــد
ترفعه لرأسها بشـــــــوق ... ثم به ترمي بغير رفـــــق
ولم تزل ترفع مخفوضا وتــــر ... مي بالرفيع من علاه للممـــر
فلا يغرك ابتسام الدنيــــــا ... في وجه من فيها ارتقى للعليـــا

وقوفــه مع ماحد له شرعا

وكان والدي محافظا علــــى ... ما حده الشارع منذ عقــــلا
وكان يحتاط لأمر الديــــن ... ولم يكن يعمل عن تخميـــن
يقف في الأمور حتى يعلمــا ... ماالله فيهن به قد حكمـــا
وكان يعمل على التأنـــــي ... وليس يعمل على التمنـــي
ولم يكن بجده مقنطـــــا ... ولا بهزله يرى مفرطـــا
ولم تزل تغبطه الســـادات ... وهو له انحرقت العـــادات

عـــــادتــه مع أهلـــه

كان أبي له ثلاث نســــوه ... به لهن تمت الفتــــــوه
كان لهن خير راع للذمـــام ... وخير راعب لهن بمـــــلام
يصفح عن هذي وهذي وهو فـي ... إنصافه من ضرهن قد كفـــي
ولم يزل بين الجميع عـــادلا ... لم يخش في نصرة حق عـــاذلا
وكلهن ائتلفت قلوبهـــــن ... به وعنهن انتفت كروبهـــن
كن على قلب بما عاملهــــن ... به وكلهن قد جاملهــــن
ولم يزلن في اتحاد بينهـــن ... حتى أبان الدهر عنه بينهـــن
وكان آخرتهن الوالـــــده ... ذات الصلاح والصلات العائده
وهي التي في بيتها وافتـــه ... وفاته وبالرضى كافتـــــه
قامت له بأكمل البـــــرور ... في عمره عمته بالســـــرور

وأيدته في أمور دينـــــه ... وهي اليسار حل في يمينـــه
وقد أعانته على دنيـــــاه ... ودينه طبق الذي يرضـــاه
فكان يشكر جميل برهـــــا ... وبكمال عقلها وسرهـــــا
ووافقته أكمل الوفـــــاق ... في كل إنفاق بلا نفـــــاق
يسرها إنفاقه اليسيــــــر ... كما يسر غيرها الكثيـــــر

وكان لا يبخل بالموجود   لهمم قضت لـه بالجود
همته مصروفة في الخير   وصرفه في أهله والغير
ومن عجيب حاله أن فسخا   شركة كانت له وقت الرخا
كانت له مع بعضهم وحاسبوه   فتم ربحهم بما قد جلبوه
فناب كل واحد من ربحه   ما زاد بين الناس في فرحه
ووالدي قد كان أنفق الـذي   قد نابه من ربحه بالمأخذ
فقال بعض الشركاء لأبي   وكان موصوفا بحسن الأدب
يا أيها الرجل إني مشفق   عليك فيما أنت منه تنفق
نحن ربحنا خير ربح ونرى   جميع ما ربحته ما ادخرا
وذاك مما أنت في العيال   تنفقه من كثرة الأموال
وأنت في حال الرخا المساعد   لك مع الربح بلا معاند
فياترى لو ضاق رأس المال   ولم يكن ربح مع الإقلال
والوقت وقت فتنة وشده   وفيه يفقد الرشيد رشده
ما أنت صانع مع التعدد   من نسوة ولست بالمقتصد
فالتفت الوالد في الحين إليه   ولم يكن مجترئا قبل عليه
وقال قول ثابت الإيمان   معترفا بفضل ذي الإحسان
انظر إلي وإلـى أولادي   ومن أنا أخصهم بالزاد
فمن وجدت رزقه لديك   فاقطعه في الحين وما عليك[1]
مالي ومالك وأنت حزت   جميع حظك الذي ربحت
وها أنا ذا قد فسخت الشركه   بينكم يا من يخاف التهلكه
فقال ما قصدي غير نصحك   حيث صرفت أنت كل ربحك
فابق على ما كنت فيه أنت   من عمل فيما لنا قد صنت
فقال لا وحق رازق العباد   مالي بعد اليوم فيكم اعتقاد
ولتنظروا الرزق الذي يأتيني   على يدي من هو في تأميني
فخجل الشريك من مقاله   وفيه أثر نفوذ حاله
وتاب في الحين على يديه   من قوله ولم يعد إليه
وفتح الله على الوالد في   دنياه وهو مطلق التصرف
موسعا لأهله في النفقه   وشاكرا فضل الذي قد رزقه
يعجبه أن يدخل السرور   عليهم ويشرح الصدورا
وكان يذخر قوت العام   مع اتكاله على العلام
وقصده اطمئنان نفس أهله   بذاك مهما غاب عن محله
فانظر إلى صدق اعتقاد الوالد   وفي ادخاره له مقاصد
ولا ينافي الإذخار الإتكال   عند الذي يعرف مقصد الرجال

[1] إشارة لقوله تعالى: الله يبسط الرزق لمن يشاء، سورة الرعد، الآية 26.
و رحم الله الشاعر البحتري إذ يقول:
إذا ما كان عندي قوت يوم   طَرَحْتُ الهَمَّ عني يا سعيدُ
و لم تخطر هموم غد ببالي   لأن غدا له رزق جديدُ

عــادتـــه مــع أولاده الذكـور

قد كان والدي رقيق الطبــــــع
بين بنيه حاكما بـــــالشـــــرع

مراعيا لهم جميع الحركـــــات
مبينا لهم بها كل النكـــــــــــات[1]

مختبرا أحوالهم في كل يــــــوم
وربما أيقظهم من بعد نــــــوم

يحب تعظيم الصغير للكبيـــــر
منهم و تكريم الكبير للصغيـــــر

يشكر منهم مستحق الشكـــــــر
منورا بذاك كل فكـــــــــــــــر

محافظا على تنافسهــــــــــــم
بينهم دون تعـــــاكسهـــــــم

لا سيما في حالة القـــــــــراءه
فإنه يجعلهــــــــــــــــم إزاءه

يحثهم على أداء الصلـــــــوات
في وقتها بين ذكور و بنـــــات

ويصحب الذكور معه للجمــــع
ولا يحب لومهم في مجتمـــــع

لكن يلوم منهم المقصـــــــــرا
لينتهي ويرعوي من حضـــــرا

ويكتفي في حالة التأديـــــــــب
بذم فعل السوء بالترهيـــــــــب

وفي الغذاء والعشاء والفطـــور
جميعهم مع حضوره حضـــــور

يقول أكل الجمع فيه بركـــــــه
والقصد في مؤنه المشتركـــــه

ويتفقد شؤون شغلهـــــــــــــم
وحالهم في جدهم وهزلهـــــــم

يرشدهم لكثرة التكـــــــــــرار
خوفا من النسيان عند القـــاري

ويظهر الفرح في حفظـــــــهم
محافظا فيهم على وعظهــــــم

عودهم ترك الفضول في الكـلام
وغض طرفهم بجمع ذا احتشـام

عودهم منه جميل الصمـــــــت
بين الأفاضل وحسن السمـــت

عودهم أن يجلسوا بـــــــأدب
ولا يسامح لهم في الكـــــذب

عودهم أن يخرجوا من حضـرته
إن ينبسط مع غيره بنظرتـــــه

عودهم أن يقبلوا عليه فـــــــي
خطابه لهم بلا تكلــــــــــــف

عودهم من صغر لثم يـــــــده
وكم بذاك غرفوا من مــــــدده

عودهم برورهم بأمهــــــــــــم
مع القيام بحقوق قومهــــــــم

عودهم ترك الخصام واللـــــدد
وترك كل سفه في كــــــل دد

عودهم كيف مداراة الـــــورى
مع التمشي في الأمام والـــورا

عودهم زيارة القبـــــــــــور
صباح يوم الجمعة المشكـــور

عودهم صلاة يوم الجمعـــــه
مع الجماعة ويمشون معــــه

عاداتـــــه مع بناتــــه

عودهن خفض صوت في الكـلام
مع الجلوس في وقار واحتشـام

عـــودهن نهضة في العمـــــل
مع التأني واجتناب الكســـــل

عـــودهن عدم الخـــــــروج
وفي العلا ارتقين للبـــــــروج

عودهن الصدق في الأقـــوال
وما به يشكرن من أحـــــوال

---

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن. إهـ.. مسند الشهاب القضاعي 2: 251 رقم 1295. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع الألف) 6: 305 رقم 18934. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الأدب). الفصل الثاني 8: 711. منتخب عبد بن حميد 1: 141 رقم 362. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 125 رقم 10975.

عودهن الشكـــــر لليسيـــــــر	مع عدم الطغيان بالكثيـــــــــر
عودهن الصبر في الملمــــــات	وكيف يسعين إلى المهمـــــات
عودهن تركهن الغيبــــــــــــه	والبعد عن موقف كل ريبـــــه
عودهن ود كل الإخـــــــــوه	مع قيـــــامهن بالفتـــــــوه
عودهن الود للجيــــــــــران	وعدم الجفاء للأختـــــــــان
علمهن الإقتصاد في الصـــــدور[1]	وفي الورود مع توسط الأمــور
علمهن أحسن التدبيـــــــــر	والترك للتكثير في التقتيـــــر
علمهن ألطف المعاشـــــــره	لمن لهن تجمع المعاصــــــره
علمهن أدب التربيــــــــــــه	مع تحلي الصورة القلبيـــــــه
علمهن كيف يجلبن الســـــرور	وكيف يدفعن عوالم الشـــــرور
علمهن شعب الإيمـــــــــان	محذرا لهن من أيمــــــــــان
مكلفا بأمرهن أمهــــــــــن	حتى تعلمن الذي قد همهـــــن
فكن من خير البنات الصالحـات	ومن أماثل النساء الناجحـــات

عاداتـــــه مع الأضيـــاف

كان أبي يفرح بالأضيـــــــاف[2]	وورد ودهم لديه صـــــــــاف
فيكثر الإنفاق مهما جـــــاءوا	إلى محله ولا يستــــــــــــاء
يقول مرحبا بكم ويظهـــــــــر	لهم بشاشة إذا ما حضـــــروا
فإن تكلموا صغى للقـــــــول	مؤيدا لهم بغير هـــــــــول[3]

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: الإقتصاد في النفقة نصف المعيشة، و التودد إلى الناس نصف العقل، و حسن السؤال نصف العلم. إهـ.. مجمع الزوائد للهيثمي (كتاب العلم) باب حسن السؤال و التودد 1: 395 رقم 727. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة المحلى بألف) 3: 447 رقم 9701. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الآداب) الفصل الثالث 8: 795. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 507 رقم 5055. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 415 رقم 5434.
و كذلك لقوله عليه السلام: ما عال من اقتصد. إهـ.. مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن مسعود) رقم 4266. مجمع الزوائد (كتاب الزهد) باب الإقتصاد 10: 443 رقم 17848. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع الألف) 6: 263 رقم 18635. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 96 رقم 10676.

[2] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: من كان يومن بالله و اليوم الآخر فلا يؤذ جاره، و من كان يومن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه، و من كان يومن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب إكرام الضيف و خدمته إياه رقم 5993.
و من أفضل ما قيل من الأشعار في هذا الصدد قول سيف الدولة الحمداني:

منزلنا رحب لمن زاره	نحن سواء فيه و الطارق
و كل ما فيه حلال لـه	إلا الذي حرمه الخالـــق

و كذلك قول بعضهم:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا	نحن الضيوف و أنت رب المنزل

[3] يقال أن من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة. و إطالة الحديث عند المؤاكلة، و من هذا القبيل قول الشاعر عاصم بن وائل:

و إنا لنقري الضيف قبل نزوله	و نشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولم يزل مؤنسا لهم بمـــــــــــــا فيه سرور لهم معظمـــــــــــا
مقابلا خدمتهم بنفســـــــــــــه ولم يزل يتحفهم بأنســـــــــــه
حتى يسيروا شاكرين فضلـــــه متوجين منه بالتجلـــــــــــــــه
يلزمنا الأدب معهم إن حضـــر وأن نغض في المعايب النظــر
حتى غدونا نكرم الأضيــــــاف لا سيما الأعلام والأشــــــراف
وذاك من شدة الإعتنـــــــــــاء من والدي بهم بلا ريـــــــــاء
والولد الأصلي يتابع أبـــــــــاه بطبعه وإن أبى منه هــــــواه

عادتـــــه في معاملته مع الأصهار والأقارب

كان يعامل الأقارب بمـــــــــــا به غدا من بينهم مقدمـــــــــا
يقابل الأصهار بالمجاملــــــــه وعنهم ما قطع المواصلـــــــه
وملزما لنفسه بالإنصـــــــــــاف وملجما لها بترك الإخـــــــلاف
فكان في بناته أزواجهـــــــــن على رؤوسهن منهم تاجهــــن
قمن بحقهم بأحسن قيـــــــــام بما به ألزمهن باحتـــــــــــرام
وكان يوصيهن باحتمال مــــــا يرين من أزواجهن دائمـــــــا
مع الملاطفة في المعاشـــــره مع كل من جمعت المعاصـــره
ولم يكن يخاصم الأصهـــــارا إذا ابنة شكت له الأضــــرارا
وربما لزوجها ينتصـــــــــــر ولا بحبها عليه تنتصـــــــــر
وحاله مع بناتـــــه جـــــرى كحاله مع زوج أخته يـــــرى
فكان في أصهاره محترمـــــــــا وبالحياء منه كل أكرمــــــــا
وهكذا أصهارنا كانوا معــــــه قلوبهم في حبه مجتمعـــــــــه
وهكذا قد كانت الأقـــــــارب في وده صفت لهم مشــــارب
ويتحبب لمن منهم جفــــــــاه ويتجنب الذي يعصي الإلـــــه

عاداتــه في تحمله إساءة جيرانــه

كان أبي يسامح الجيرانـــــــا[1] فيما به آذوه منذ كانـــــــــــا
يغضي عن الإساءة العيونـــــا وقد أزاح عنهم الشجونــــــــا
وكلهم عاملهم بالرفــــــــــق مؤيدا لهم بنهج الحــــــــــق
يبدأ بالسلام منهم من لقــــــي مع التأدب وحسن الخلــــق
ومع ماله من التواضــــــــــع يرفع نفسه عن التخـــــــادع
فلا يخادع ولا يخـــــــــــادع وكم حسود بينهم قد صـــــانع

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: التمسوا الجار قبل الدار، و الرفيق قبل الطريق. إهـ.. مجمع الزوائد (كتاب البر و الصلة) باب ما جاء في الجار 8: 300 رقم 13534. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع اللام) 2: 69 رقم 3957. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الخامس) 1: 3120 رقم 41495.
و كذلك لقوله عليه السلام: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب الوصاة بالجار رقم 5876. صحيح مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب الوصية بالجار و الإحسان إليه رقم 6639.

وكم تحمل من الإســــــــــاءه ولم يواخذ منهم من ســـــــاءه[1]
مدافعا عنهم بقدر الإمكــــــــان ونافعا لهم بجلب الإحســـــــان
و إن أصيب أحد منهم بمـــــــا يكرهه كشف عنه الألمـــــــا
و لا يوالي منهــــــم غير الولي و لا يعادي غير ذى الشر الجلي
فكل من رآه منهم فاجـــــــــرا غدا له إن لم يهاجر هاجـــــرا

عادتـــه في رياضة نفســه
في الخلوة والجلوة

قد كان والدي لدى الرياضـــــه يقصد في نزهته رياضـــــــــه
فهو في فصل الربيع يخـــــرج لخارج البلد وهو أبهـــــــــج
وغالبا يخرج في العشيـــــــة منفردا أو مع خير جلـــــــــة
ثم يعود بنشاط نفـــــــــــس مع انبساط من بساط الأنـــس
وفي المصيف والخريف ربمـــا قصد بالأهل لروض قد سمـــا
وفي المزاح معهم لا يفـــرط ولم يكن في أمرهم يفـــــرط
وإن خلا بنفسه أكثر مـــــــن ذكر بقلب ولسان قد أمـــــن
ويتفقد أمور نفســـــــــــه بنفسه كأنه في درســـــــــــه
وغاية الأمر فإن والـــــــدي حاز كمالات برغم الحاســـــد

عادتـــــه في الصحـــة

في حالة الصحة كان والــــدي يصرف منه الوجه للمحامـــد
فيغنم الصحة والفراغ مــــــن شغل لتحصيل الذي به أمـــن[2]
يعمر الأوقات بالعبـــــــــاده وكثرة الذكر بخرق العـــــاده
لم ينس حظه من التمتـــــــع مع المحافظة بالتــــــــورع
ولم يزل في حال صحة يـــرد موارد الخير بجد المجتهـــــد
بهذه الحلة قد عرفتـــــــــه ولا غلو في الذي وصفتـــــه

عادتـــــه في المرض

وإن ألم بأبي ملـــــــــــــم فإنه بحالــــه يهتـــــــــــم
ولا يلازم الفـــــــــــراش إلا في سقم عليه قد تجلـــــــــى

---

[1] لسانه حاله في ذلك قول الشاعر حاتم الطائي:
بعيني عن عورات جاري غفلة و بالسمع مني عن حديثهما وقر
و من هذا المعنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: ليس حسن الجوار كف الأذى، بل الصبر على الأذى. إهـ.. من حديث طويل له. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (مسانيد الصحابة) حرف الياء 18: 253 رقم 8611. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد السادس عشر) 1: 3323 رقم 44226.
[2] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة و الفراغ. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب ما جاء في الرقاق و أن لا عيش إلا عيش الآخرة رقم 6225.
و رحم الله الشاعر أبا العتاهية إذ يقول:
إن الشباب و الفراغ و الجده مفسدة للمرء أي مفسده

وقلبه بربه معلـــــــــــــــق في حالة فيها المريض يقلـــق
وكل من في سقمه قد عـــــاده يرى لديــه منه خرق العـــاده
بجده في حالة الثبـــــــــات محسنا في ربه النيـــــــــات
محافظا على أداء الصلـــوات في وقتها وهو ثقيل الحركـــات
وحيث لا يضبط وقتها يســـل عنه ولا يشغله عنها عمــــــل
ويتعاطى للشفا الأسبابـــــــا وفاتحا في وجهه الأبوابـــــا
مدافعا عن قلبه ما يشغلـــــه ومخلصا في كل شيء يعملـــه

عادتــه عند نزول الحوادث بـــه

يفزع والدي إلى مـــــــولاه في كل ما عراه أو دهـــــــاه
فيكشف الله البلاء عنـــــــه وكل خير فهو يأتـي منـــــــه
وكان والدي له الصبر الجميـل[1] ولم يكن لغير مولاه يميــــــل
والصبر عند الصدمة الأولى لـه فضل وللعبد هو الأولى لـــه
ما زال يظهر رضاه بالقضــــا حتى ارتدى ردا القبول والرضا

عادته إذا رأى جنازة أو سمع بها

كان إذا مرت به جنــــــازه يرجو له ثم لها المفــــــازه
وغالبا يتبعها لا سيمـــــــا إن تك من حومته مستسلمـــا
ولم يزل متعظا في يومهــــا مسارعا إلى عزاء قومهـــــا
وإن تكن من قومه الجنــــازه ملك نفسه بصبر حـــــازه
ويقتدي بــه أجل قومــــــه ويختشي من والدي ولومـــه
يقول إن الصبر خير من جزع لا نفع في الجزع والصبر نفــع

عادته في زيارته للقبور

كان أبي يزور قبر الوالديــــن قبل زيارة قبور الصالحيـــن
يزورهم في كل يوم جمعـــــه وغالبا يصحب جلنا معـــــه
يبتدئ الدعاء بالســــــــلام عليهم في ذلك المقــــــــام
ثم لنا يفتح بعض الســـــور نقرؤها جهرا بذاك المحضـــر
ونرفع الأكف في الختـــــــام مع الدعاء لذوي الإســـــلام
وربما فرق منه صدقـــــــات حال مرورنا ببعض الطرقـات

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: الصبر مفتاح الفرج. إهـ.. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، للسيوطي (حرف الصاد المحلى بالألف) 1: 196 رقم 297.
و كذلك قوله عليه السلام: الصبر معول المسلم. إهـ.. الترغيب و الترهيب، للمنذري (كتاب الجنائز و ما يتقدمها). الترغيب في الصبر سيما لمن ابتلي في نفسه أو ماله، و فضل البلاء و المرض و الحمى، و ما جاء فيمن فقد بصره 4: 140 رقم 5148.

عاداتـــه في أفراحـــه

يسلك في أفراحه التوسطـــــــا ولا يحب أن يرى مفرطـــــــا
فيعمل العوائد المحمـــــــوده لجبره الخواطر المنكـــــوده
ويكره المغنيات في الفـــــرح ككرهه للنائحات في التـــــرح
ولم يزل محارب العوائــــــد في أهله وهو لهم مجاهـــــــد
حتى غدت تكرهها نفوسهـــــم وأذعنت بها له رؤوسهـــــم
وكان يرشد إلى التوســـــط في كل أمر وهو غير غلـــــط
مؤولا قول ذوي الإنصـــــاف منازل الأشراف في الأطــراف
فالعربي مخاطر بنفســـــه فيها لكي يعظم عند جنســــه
والقصد من توسط الأمــــور[1] حيث التطرف من الغـــــرور
فالعبد بالغلط يغدو ملكـــــا ومثله العابد يغدو ملكـــــا
وانظر لأمة نبي الحــــــق كيف تعد وسطا في الخلــــق
ولازم الوالد هذي الحالـــــه فلم يطل في عمره آمالــــــه
ولم نجاوز في الأمور حـــدا وما اعتدى بها ولا تعـــــدى
فكان في الإنفاق غير مســرف ولم يكن على الردى بمشــرف

عاداتـــه في الأعيـــاد

كان أبي في سائر الأعيــــــاد يكثر في الإنفاق لـــــــلأولاد
أما بعيد الفطر فهو يخــــرج بنفسه الفطرة ثم يخـــــــرج
وذاك من بعد صلاة الفجـــــر قبل طلوع شمس عيد الفطـــــر
يخرج للصلاة بعد فطـــــره ولو قليلا لاكتساب أجـــــره
يصحبنا إلى المصلى معـــــه ثم يعود مرضيا مجمعـــــــه
يجمع أهله عليه للهنـــــــا ومنهم بوده ينفي العنـــــــا
ولا يحب فطرة تؤخـــــــر في داره وهو بها لا يشعــــر
فان رآها لم يدعها ولهـــــا يخرج في الحين لمن سلمهــــا
وهكذا في عيد يوم الأضحــــى لكن فطره يرى إن ضحـــــى
من كبد الأضحية التي لــــه لسنة وأجرها حصلــــــــه
وبعد ذاك يصل الأرحامــــا ونحن معه نغنم الإكرامـــــا
ثم نعوذ ظافرين بالســــرور لدارنا والأهل مشروحوا الصدور
وهكذا في موسم الميـــــلاد وهو لديه أفضل الأعيـــــاد
يكثر في ليلته من الثنـــــا على النبي في سناء وسنـــــا
صلى عليه الله كل حيـــــن مع كل تابع له في الديـــــن

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم خير الأمور أوساطها. إهـ.. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (حرف الخاء) 1: 163 رقم 226.
و من هذا المعنى قول الشاعر أبي العلاء المعري و قد أجاد:
فإن كنت تهوى العيش فابغ توسطا فعند التناهي يقصر المتطـــاول
تُوَقَّى البدورُ النقصَ و هي أهلـــة و يدركها النقصان و هي كوامل

عاداتـــــه في يوم عاشوراء

يكثر في الإنفاق في عاشـــــورا منورا لأهله الصــــــــــــــدورا[1]
موسعا عليهم المضايـــــــــــق ولهم كل سرور سائـــــــــــق
محافظا على الذي فيهــــا ورد ولو يكون ذاك في ضعف السند
يقول من أصلح فيها أمـــــــره ينال طول عامه المســــــــــره
ولم يزل يأخذ بالخواطـــــــــــر فيها لكل غائب و حاضـــــــــر
ويخرج الزكاة فيها بعد مــــــا يحصي جميع ما لديه أبهمـــــا
ويشتري الأواني الجـــــــــديده فيها مع التبخرة المفيـــــــــده
ويلبس الجديد فيها كيف مــــــا له تأتى وله الخير انتمــــــــى
ويأمر الأولاد بالتـــــــــــــلاوه فيها ويدفع لهم حــــــــــــلاوه
ويأمر البنات بالأشغـــــــــــال قبل طلوع شمسها بالحــــــال

عادتـــه في دخول الحمـــام والخروج منه

غالب حالة أبي المستجمعــــــــه دخوله الحمام يوم الجمعـــــه
وكان ينوي الفرض والمسنونــا وفق الذي كان بـه مأذونـــــا
وكان فيه غالبـــــا يستتـــــــر بحيث لا يبصره من يحضـــر
وتكتسيــــــه حلة الحيـــــــاء مهما يراه ذاهب أو جـــــاء
وربما يرجع باختـــــــــــلاس للدار حتى لا يرى في النـــاس

عادته في النظر في المرآة

يقول والدي إذا نظر فـــــــي صفاء مرآة مع التلطـــــــــف
عليك يا وجه الفنا و العـــــدم خير سلام من معيد النســــــم
ولم يزل متعظا بما يــــــــرى من حاله الذي به تغيـــــــرا

عادتــــه في منامــــه

قد كان في الليل ينام والـــــدي بضع سوائع بدون زائــــــــد
ينام من بعد صلاته العشــــــا بعد عشائه وترويح الحشـــــا[1]

---

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: من وسع على عياله يوم عاشوراء لم يزل في سعة سائر سنته. إهـ.. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الصيام) 3: 434 رقم 5137. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع النون) 7: 114 رقم 21260. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الزكاة) الفصل الثالث 4: 420. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (حرف الميم) 1: 261 رقم 426.
و من هذا القبيل أيضا يقول العلامة المالكي الشهير عبد الملك بن حبيب:
لا تنس لا ينسك الرحمان عاشورا و اذكره لا زلت في الأخبار مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشملــــه قولا وجدنا عليه الحقَّ و النـــــورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة يكن بعيشه طول الحول محبــــورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنـــــا خير الورى كلهم حيًّا و مقبــــورا

يمتد في فراشه مضطجعـــــا … على يمينه ويكثر الدعـــــا
ويختم الدعاء بالشهـــــاده … ثم ينام فيه وفق العـــــاده
ثم يقوم دائما في الحـــــر … والبرد من قبل طلوع الفجـــر
وحين يستيقظ ينهض وقـــــد … يكثر من ذكر ليحيي من رقـــد
تمت يسبغ الوضوء ويعـــــود … للذكر والدعـــا لموضع السجود
ثم لمسجد الصلاة يـــــخرج … وبالثنا على القيام يلهـــــج
ثم بمجلس العلوم يجلـــــس … وقد يعود للفراش ينعـــــس
وقبل أن تطلع شمس يذهـــب … لموضع فيه غدا يكتســـــب
وهكذا يفعل كل يـــــوم … مجتهدا في الخير بين القـــوم

عادتــــه في ملبســـه

كان أبي يهتم بالتديـــــن … ولم يكن يهتم بالتزيـــــن
ولم يكن يستلفت الأنظـــارا … بملبس يستوجب الإنكـــارا
وإنما عادته في الملبـــس … لباس ما به مثيله كســـي
يلوي على الشاشية العمامـــه … بيده ليا نفى اغتمامـــه
ويلبس القباء والكســـاء … مع سراويل كما قد شـــاء
ويلبس القميص والفرجيـــه … ثم حزامه يرى الكرزيـــه
ونعله بلغة أهل فـــاس … وذا له الغالب من لبـــاس
محافظا على نقاء الملبـــس … مع النظافة بطيب الأنفـــس
وكلما رام لباسه الجديـــد … يشكر مولاه ليحظى بالمزيـــد

عادتــــه في مأكلـــه

يأكل مما أهله قد هـــيؤه … وهو به مهما أتمّ هنئـــوه
ولم يكن يأكل بانفـــراد … بل أكله في الجمع باعتيـــاد
لا يشتهي من أهله طبخ طعـــام … دون تشهيهم له وقت الصيـــام
وبعد ما ضعف من قوتـــه … خص بما ينفعه من قوتـــه
يبتدىء الأكل باســـم الله … ويحمد الله لدى التناهـــي
وهكذا يلقـــن الأولادا … بذكره ليحرزوا الأمـــدادا
ويبتدي بالأكل من جهتـــه … حتى يتم القصد من وجهتـــه
مبينا لهم بحســـن الأدب … أدب أكل المرء دون طلـــب

---

[1] تماشيا مع الحديث الذي رواه البخاري عن أبي برزة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يكره النوم قبل العشاء و الحديث بعدها. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب مواقيت الصلاة) باب ما يكره من النوم قبل العشاء 2: 241 رقم 561.

عادتـــه في الشـــرب

يبتدأ الشرب ببسم الله مــــــع
تنفس والحمد معه إن قطـــــع[1]
وليس يشرب سوى الماء القراح
أو الأتاي وله منه انشـــــراح
يختار ماء البير والعين علـــى
وادي الجواهر وماؤه حـــــلا
وقلما شرب بعد الأكـــــــل
إلا بفصل الصيف بعد شغـــل
وقلما شرب كأس قهـــــــوه
لأنها تهدم منـــــــــه القوه
وعنده الحليب والألبـــــــان
من خير ما يشربه الإنســـــان
وربما شرب من ماء الزبيـــب
مستحسنا لشربه وهو مصيــب
وربما شربه للإسهــــــــال
مع رأس ورد وسنا باستعمـــال
وربما شرب ماء اللوز مـــع
عصير رمان وليمون نفــــع
وماء ورد في المذاق يعجبـــه
وغير ما ذكرته لا يشربـــــه

لاحــــقـــة
بالعــــادات السابقـــة

كان أبي بنفسه يحمل مــــــا
ينفقـــه لداره مسلمـــــــــا
مجردا عن حلة الكبر التــــــي
رمت بغيره لأدهى علـــــــة
وبالـــــمرؤة اكتـــــسى رداء
منها كسى ناظره الحيـــــــاء
ولم يطل جلوسه فــي الــــدار
مراعيا بذاك للوقـــــــــــار
وربما خرج من غيـر كســـــا
لموضع فيه جلســـــــــــا

[1] تماشيا مع الحديث الذي رواه الحافظ البخاري عن ثمامة بن عبد الله قال: كان أنس يتنفس في الإناء مرتين أو ثلاثا. و زعم أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يتنفس ثلاثا. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأشربة) باب الشرب بنفسين أو ثلاثة رقم 5504.

خـــاتمـــــة

توفي الوالد في فاس وقــــــــد — كنت بطنجة ووجدي قد وقـــد[1]
وكان حبّس الرضى علينــــــا — موجها نظـــرته إلينـــــــــا
فالله يعلي في الجنان رتبــــــه — حتى ينال فوق ما قد طلبـــــه
وهو الذي أرجوه أن يعممـــــه — برحمـــه تمت بكل نعمـــــه

ومما قلته في شكر سيدنا الوالد رحمه الله

لوالدي منـــة علـي قد كبـــرت — ونعمة في الوجود دائما كثـــرت
قد كان لي سببا في الكون من عدم — لولاه ما فرحت نفسي بما ظفـرت
ظفرت في هذه الدنيا بمعرفتــــي — لله وهو الذي آلاؤه[2] شكـــــرت
به ظفرت بإيماني وما ظفــــري — إلا به في الذي نفسي به شعــرت
يا ليت قومي بفضل والدي افتخروا — على سواهم كما نفسي به افتخرت
أنا ابن عياش الذي له شهـــــدت — كل الأعادي بآيات له اشتهـــرت
أنا ابن عياش الذي له حمـــــدت — في الناس سيرته ونفسه طهـــرت
أنا ابن عياش الذي سما رتبــــا — فيها له راية الأنوار قد نشـــرت
أنا ابن عياش الذي به ابتهجـــت — مجالس شمسه في أفقها ظهـــرت
أنا ابن عياش الذي محاسنــــــه — لم أحص أنواعها بالعدّ إن ذكـرت
لالا أطيل مدائحي عليه بمـــــا — أخشاه من قوله ياليتها اختصـــرت
فالمدح مني له مدح لنفســـي إن — أنصفت يا ليت نفسي فيه قد عذرت
وإنني لم أزل في الناس شاكـــره — لأكتسي من رضاه حلة بهـــرت
وإن شكري له شكر لخالقــــــه — والله حافظ نعماه التي شكـــــرت
لازلت ياوالدي في رحمة وسعـت — كل الوجود وفيها نفسك انغمـــرت

وقلت في مدحه رضي الله عنه

كم من نوائب في نواي[3] أكابــــد — وتزايدت فيها علي شدائــــــــد
وأنا أعانيها وأظهر أننــــــــــي — للدهر فيها لا أزال أعانـــــــد

---

[1] توفي رحمه الله بتاريخ يوم الأحد 4 جمادى الثانية عام 1328 هـ_13 يناير 1910م. و دفن بجبل زعفران خارج باب عجيسة بفاس. و كان نجله العلامة سيدي أحمد سكيرج حينئذ بمدينة طنجة، حيث توصل هناك من والده المذكور برسالة مؤرخة قبل تاريخ وفاته بيومين فقط، قال في آخرها:
و نعلمك بخالتك آمنة كيرانة، زوجة السيد الحاج المكي بن كيران، عظم الله أجرك فيها، و قد توفيت قبل تاريخه بثلاثة أيام، فالله يلحقنا بها مسلمين آمين، و أما ما كان من أمر أخيك عبد الخالق فإنه قد نزل من الحانوت و دخل القرويين، هذا ما علي و أنا مسافر للآخرة. إهـ..
و قد كتب العلامة سيدي أحمد سكيرج بهامش هذه الرسالة ما يلي:
توفي سيدنا الوالد رضي الله عنه بعدما كتب هذا الكتاب بيومين، عبارتان اثنتان جاءتنا في هذه الرسالة وكأن صاحبها كان ينظر من وراء حجاب إلى ما سيقع في القريب العاجل، فالأولى منهما: أنا مسافر للآخرة. فكانت كلمة صادقة. و الثانية: فالله يلحقنا بها مسلمين، كانت دعوة مستجابة. إهـ..
[2] الآلاء: النعم
[3] النوى: البعد.

حتى تيقنت العواذل أننـــي ... بالصبر صب في هواه مجاهـــد
ما أثرت فيه ملامة عـــاذل ... بل بالملامة حبه متزايـــد
ولطالما اختبر العدا أحوالـــه ... وهو الكتوم لما به يتواجـــد
لم يعرفوا من هاج فيه غرامـــه ... لتثير فيهم من هواه مفاســـد
والحب إن يخفى على أهل الجفى ... اتهموا الخلي وهل لديه مساعـد
ولو أنهم تركوا الجفى واستفهمـو ... ني قلت إن حبيب قلبي الوالـــد
فأبي الحبيب وما حبيب مثلـــه ... عندي وليس لدي فيه معانـــد
من ذا الذي كأبي يرى في عصره ... ولو أن علياه أباها الجاحـــد
قل لي الذي أدى الحقوق لوالديـه ... بزعمه لك في البرور محامـــد
ما أنت مستوف وحقك حقهـــم ... وبرورهم صلة لديك وعائـــد
ولقد رأيت لوالدي حبا بـــه ... خلدي[1] تنور وهو عندي خالـــد
وله مكارم لا تعدّ لحاســـب ... ولو أنها تحصى لمات الحاســد
ما أبصرت عيناي مثل أبي وكم ... أبصرت ذا فضل وفيه زوائـــد
فالله يعلي في الجنان مقامـــه ... وله به في المكرمات مقاعـــد
ويحفه[2] بردا القبول متوجـــا ... تاج الرضى وبه تتم مقاصـــد

وقلت في الثناء على جنابه قدس الله روحه

إذا افتخر الأبناء يوما بآبـــاء ... فلي بأبي فخر تسامى بعليـــاء
وما كان فخارا بمال ولا بمـــا ... لمال يؤول في عدى أو أحبـــاء
ولكن برفع النفس عن كل ساقط[3] ... وإحراز فضل مرغم أنف أعدائي
وإحسان أفعال وحسن سريـــرة[4] ... وصدق بأقوال وتسديـــد آراء
أبي والذي أتاه حكما وحكمـــة ... وحلما أبيّ النفس عن كل أسواء
ولم يفتخر لكن به كان مفخـــري ... على كل ذي فخر بنفس وآبـــاء
وكم من جهول ليس يدري مقامه ... يراه بعين ما بها غيـــره راء
يراه مع الأقوام ما امتاز عنهـــم ... بدعوى صلاح وهو فائق أكفـاء
فهل لجهول أو حسود لفضلـــه ... شهود فمال دونه سر إخفـــاء
أبي لم يكن من دأبه الفخر بالـذي ... له من كمال الفضل بين الأحبـاء
وكان له في المكرمات مشاهـــد ... بها تضرب الأمثال من غير إطراء
وحقك ما في العصر مثل أبي له ... محامد لا تحصى لطالب إحصاء
وإن أبي والله يشهد أنـــه ... رفيع مقام قد علا كل عليـــاء
تحلى بتقوى في جميع أمـــوره ... بنفس له تقوى على حمل أعـباء
تخلى عن الأهواء في زمن الصبا ... وما مال في حال المشيب لأهواء
تجلى على كرسي السيادة في الملا ... وأملى فتوحات بأحسن إمـــلاء
يؤثر في قاسي القلوب مقالـــه ... وعن كل نفس كاشف كل أدواء[5]
وقد سبقت والحمد لله نظـــرة ... لنا منه فاقتدنا بها كل مســـراء

---

[1] الخَلَدُ: البال و القلب.
[2] يحفه: يحيطه.
[3] الساقط: اللئيم.
[4] السريرة: النية أو ما يسره الإنسان من أمره.
[5] الأدواء: الأمراض.

ونلنا به والحمد لله نعمـــــــــة / نراها بحمد الله أكمل نعمـــــــاء
جزاه إله العرش عنا بما بـــــه / تقربه العينان منه بإرضـــــــاء
فيرفع في أعلى الجنان مقامــــه / ويحظى بقرب منه كامــل آلاء

وقلت في مدحه رضي الله عنه بعد وفاته

طاب أنسي وكنت في إيحاشـــي[1] / وإلي من هويت طال انحياشـــي
لم أخف بعد قربه من بعـــــاد / عن حماه وفي حماه انتعاشــــي
يا لقومي هل تعلمون بأنــــي / متفان في والدي العياشــــــي
لي من حبه بقلبي وجــــــد / صار صبري من بعده في تلاشي[2]
منذ فارقته تفرق شملــــــي / وببعدي عنه زال هشاشـــــي[3]
كان لي والدا شفوقا ولكــــن / عنده طاب في الهناء معاشـــي
بدل جهده لنفعي ودفع الضـــر / عني في الأنس والإيحــــــاش
لم أشاهد مثيله في زمانــــي / كيف والفضل منه في فاس فـاش[4]
فهو بين الورى تقدم في الفضــل / وهم من ورائه كالحواشــــي
وهو يوم الوغى تصدر في الجيش / وفيها قد صار ثابت جـــــاش[5]
فلتسل عنه حرب تطوان كــم دا / فع عنها من سطوة الأوبـــاش[6]
كان عنها مدافعا وله كــــم / من مدافع همة لاندهــــــاش
وأصيب بوقعة كان فيهـــا / برصاص من العدا رشــــاش
لم يزل جرحه يعاهده مـــن / بعده بانتفاخه وانتفـــــــاش
ثم حين احتضاره انفجر الجــر / ح فكان الشهيد فوق الفـــراش
قدس الله روحه في جنــــان / وحباه ما فيه كل انتعــــاش

وقلت فيه أيضا :

ما كان في المدح إطراق الأطراء / الا لمدحي أبي كشاف ضرائـي
ولست أطريه في مدح له بثنـــا / عليه وفق الذي تقضيه أهوائـي
وإنما مدحه بالصدق معترفـــا / بالعجز عن شكره يا أيها الرائي
ماذا ترى إن أنا قصرت فيه ولم / أطل به أو أنا طولت أثنائــــي
ألم يكن هو يستحق خير ثنـــا / إن الثناء عليه مذهب دائــــي
إن قلت من أفضل الأقطاب قاطبة / صدقت في ذاك وهو نور ظلماء
أو قلت أن له العلياء خاضعـــة / لا شك في ذاك فهو قطب علياء
فاعرف بقدر أبي فقد سما رتبـا / تسمو به في المعالي فوق جوزاء[7]

---

[1] إيحاشي: بمعنى وحشتي، أي يشعر بالوحشة و هي ضد الإستئناس.
[2] في تلاشي: في ضعف.
[3] الهشاشة: بمعنى النشاط و الإرتياح.
[4] فاش: بمعنى منتشر و ذائع.
[5] الجأش: القلب و الصدر.
[6] الأوباش: سفلة الناس و أخلاطهم
[7] الجوزاء: من البروج السماوية الإثني عشر.

له مكارم لا أحصي لها عـــددا ... منها تصرفه بسر الأسمـــــاء
منها القيام بأمر الدين مجتهـــدا ... مجاهدا نفسه ونفس الأعـــداء
مستهونا زخرف الدنيا بأجمعها ... مستعظما أمر أخراه لا يفـــاء
لله ما كان منه في ظواهــــره ... وفي المساعي التي جلت بإخفائي
ما كان أولعه بستر طاعتــــه ... وشكره للإله كل نعمــــــاء
لو لم يكن لي أبا لقلت فيه ثنـــا ... يزداد حسنا بإنشاد وإنشـــاء
لكنه والدي والمدح فيه يـــرى ... من مدح نفسي التي ترمي بأسواء
ولست فيه بمستوف الثناء ولــو ... أطلت فيه الثنا بكل إطـــراء
فالله يشمله رداء رحمتــــه ... في جنة ويوافيه بــــــآلاء

وقلت أيضا:

يلومونني في ترك مدحي لوالدي ... وكم من مقامات له في المحامـد
يقولون لي لم لا تطيل مديحـــه ... وأنواره مجلوة[1] للمشاهــــد
وأنت ابنه والشكر لا شك واجب ... عليك له فلتبده في المقاصـــد
فقلت لهم إني إذا ما مدحتــــه ... يعنفني في مدحه كل حاســـد
وفي مدحه مدحي لنفسي وهل أنا ... أوفيه شكرا في جميع المــوارد[2]
بلى لا أوفي شكره ولو أننـــي ... أطلت مديحا فيه رغم معانـــدي
وإن قصارى النفس مني قصورها ... وكم من قصور في الثناء التباعد
وكم في الثناء والتقرب من ثنـــا ... تقر به عيناي وهو مساعـــدي
وأتركه كيلا يقال بأننــــــي ... مدحت أبي حال الرخا والشدائد
أبي كان ذا فضل تقرّ به الـــعدا ... وإن كان لا يحتاج فيه لشاهـــد
وكم من كرامات له في أقاربـي ... وأعظم إكرام له للأباعــــد
وقد كان محمود المساعي ولم يزل ... يعد بها لله أفضل حامــــد
يجاهد في الطاعات لله نفســـه ... وكان بها في العصر خير مجاهد
وكان كثير الشكر لله ربـــــه ... كثير اهتمام بالعبادة زائـــــد
فيا رب فارحم والدي فلكم دعـــا ... لترحمه في خلوة ومساجــــد
أنله الرضى واحشره في زمرة النبي ... عليه السلام في جميع المشاهـــد
ويشمل كل التابعين لنهجــــه ... بطيب وفيه لي كمال المقاصـــد

وقلت في رثائه رضوان الله عليه

من عادة الدهر أن يروع الناســا ... وأن يبدل بالإيحاش إيناســــا[3]
ولم يزل يسلب الدهر النفوس إلى ... أن يقصم الظهر ممن طاب أنفاســا
آه فقد سامني الدهر الخئون بمـــا ... قاس فؤادي به في البعد ما قاســـى
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... بوالدي وسقاني بالأسى كاســـا
كاس تجرعتها ولو تجرعهـــا ... دهري أرعوى عن تجرع الأسى الناسا

---

[1] مجلوة: ظاهرة.
[2] الموارد: جمع مورد، و هو موضع الورود.
[3] الإيناس: الإستئناس و هو الألفة و سكون القلب بمحبوبه.

يا دهر لو ذقت ما ذقنا لضقت به ... ذرعا وطأطأت منك في الأسى الراسا
آه فقد فقدت نفسي أجـــــل أب ... قد كان لي من جميع السوء حراسا
أبي الذي كان بالإنصاف متصفا ... وكان عند انتهاك الحـق عباسـا
من مثله ذروة العليا به ابتهجت ... وفاق في الفتح أوتادا[1] وأجراسـا[2]
أبي ولي ولي به مفاخــرة ... على الذي بأبـي أباه قد قاسـا
ولم أفاخر به غيري فغالبنـي ... وإن فخري به ليذهب البـاسـا[3]
ما قلت هذا تبجحا[5] فيحسبنـي ... من ليس يعرفه قصدت إلباسـا[4]
لالا وحقك إني ما شكرت أبـي ... بغير حق وكم بالخير قد واسـى
سلني أخبرك عن أبي بمعرفـة ... وليس ينكرها من يعرف الناسـا
وإنني لم أوفه بمحمـدة ... هب أنني فيه قد سودت أطراسـا[6]
دعني ومالي وللفخار بعد أبي ... إن الفخار قبيح عند من ساسـا
والله أسأل أن يعم روضتـه ... برحمة وبها يطيب أنفاسـا

يقول ولد ناظم هذه المرثية عبد الكريم غفر الله ذنبه، وستر عيبه: هنا انتهت قصيدة سيدنا الوالد، وقد وقفت على أشياء بخطه رحمه الله تتعلق بترجمة والده جدنا المرحوم كان في نيته الحاقها بهذه الترجمة، أحببت إثباتها هنا كيفما تيسرت. منها قصيدة في رثاء والده المذكور لم يتم ذكرها، وهي:

دعني فلست بجاحـــد ... وأراك غير مساعـــدي
أتظن أنك في المـــلا ... أديت حق الوالـــد
أو لست تعلم أنـــه ... بك كان أعظم واجـــد
وعليك كان محافظـــا ... لتكون أكمل ماجـــد
وإليك يسعى أن يرغم أنف الحاسد
يبغي حياتك بعـــده ... لتنال خير محامـــد
فاشكر أباك فشكـــره ... من باب شكر الواحـــد
من لي بألسنة بهـــا ... أدعو الإلـــه لوالـــدي
لولاه لم أك موجـــودا ... ولديّ خير شاهـــد

هذا كل ما وقفت عليه بخطه من هذه القصيدة التي لم يقدر لها أن تتم، كما وقفت على ورقة ذكر فيها مولد والده، وبعض النقط التي كان ينوي الكتابة فيها أثبتها هنا، وهي: ذكر مولده بفاس بتاريخ 1259هـ، وتربيته في حجر والده الذي كان كفله أولاد ابن كيران. فتربى يتيما هو وأخوه السيد المكي الطبيب، واختراع الطبيب للدواء القائم مقام العشبة، وما كان عليه من التبجح بنسبته للخزرج القاطنين بالأندلس، وينجر الكلام إلى الوزير الكاتب ابن الطيب سكيرج[7]، وروضتهم بسيدي مساء الخير برأس الشراطين.
ذكر قراءته ورفع همته عن أن يكون عالة بغير إنفاقه على نفسه، وأنه لا يفاخر إلا بنفسه:

نفس عصام سودت عصاما ...إلخ

[1] الأوتاد: طبقة من أولياء الله تعالى تعرف بهذا الإسم و مفردهم وتد و هم أربعة.
[2] الأجراس: طبقة من أولياء الله تعالى تعرف بهذا الإسم و مفردهم جرس.
[3] الباس: بمعنى الخوف و العذاب.
[4] إلباسا: بمعنى التباسا.
[5] تبجح: افتخر و تعاظم.
[6] الأطراس: مفردها طرس و هو الكتاب أو الصحيفة.
[7] سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

ولذلك تعاطى حرفة الطرازة والتجارة والوكالة:

ذكر معارفه وما حصله من الفنون مع التضلع في فن الأحكام والنوازل .
ذكر جهاده في الإسبان.
ذكر حجه لبيت الله الحرام ومروره على مصر القاهرة.
ذكر أولاده.
ذكر شيوخه.
ذكر بعض قصائده .
ذكر عاداته وأحواله.
كان يحب أن يصاهر الشرفاء ببناته، بخلاف أنجاله فلا يحب أن يتزوجوا من آل البيت خشية عدم القيام بحقوق الشريفة.
مصاهراتنا مع العراقيين من قديم، منهم والدة ابن عمنا سيدي الزبير.
انتقال العم الأكبر السيد المكي لمكناس، ثم لرباط الفتح، ثم لطنجة مع ابن العم وبيان سبب ذلك، وهو موت بعض الشرفاء الذين أكلوا سهلته.
أولاده: الأخت راضية زوجة الشريف السغروشني وبنتها.
الأخت خدوج، وتزوجها ابن عمها الأخ الحاج محمد.
الأخت زينب، وتزوجها بالفيلالي وبناتها.
الأخت عائشة، وتعدد أزواجها، وآخرهم الشريف سيدي عبد الهادي الميساوي.
الأخ سيدي محمد.
عبد ربه أحمد.
الأخ سيدي عبد الوهاب.
الأخ الطالب سيدي عبد الخالق.
الأخ سيدي الحاج عبد الرحمن وهو أصغرنا.
عمتنا السيدة الطام سكيرجية وأولادها.
خالاتنا: السيدة كنزة، وآمنة، ورقية كيرانة.
انتهى ما نقلته من ورقة بخط والدنا المرحوم.

ولسيدنا الوالد الحاج العياشي سكيرج أيضا هذه القصيدة بالملحون[1]:

نبدا في وزانـــــــــــــــــــــي	بسم لكريم ربي يفتح لي الأكــــــوان
في مديح التجانــــــــــــــــــي	صاحب الوظيفة ولعلم مع البيـــــان
وصلاة المدانـــــــــــــــــــي	درك سرها وطاعت له لكــــــوان
سره ما لو ثانـــــــــــــــــي	ظهرت سنت وخذ عنه الأعيـــــان
في ضريح سلوانـــــــــــــــي	يسبي أهل لعقول والسادات أهل الإيمان
ونا بهم عانـــــــــــــــــــي	وقت ما نظمت ناد بلســـــــــــان
مولاي أحمد سلطانــــــــــــي	ربي فضلو وارفع لصاحبو الشــــان

[1] هي قصيدة من شعر الملحون، أنشأها المترجم له الحاج العياشي سكيرج في مدح القطب الرباني الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن محمد التجاني رضي الله تعالى عنه، و هي دليل على المحبة العميقة التي كان يكنها المترجم لهذا الشيخ و طريقته و مريديه، و يظهر هذا جليا من خلال مقاطع القصيدة، و ما استعمله فيها من عبارات تنويه و إعجاب متزايد.

شلّ نحكي بلسانـــــــــــــي في وصف قبتو شلّ رات لعيـــــــــان
مصابح دهبانـــــــــــي وأنواع ثريات وجومرهم بلــــــوان
جلج واوانـــــــــــي سقى عروسا برزت بين لغصـــــان
يشرب الظمئـــانــــــي ودو لكل سقم يعلج من لمحـــــــان
مياه دفقانـــــــــــي وزرابي لجوهر وعقيق السسبـــــان
مقام مالو ثانـــــــــــي بالسر وظراف ولجلس ولحســـــان
مولاي احمد سلطانـــــــي ربي فضلوا وارفع لصحابو الشـــــان
وتاج الفوقانـــــــــــي
متوج تيجــــــــــان دربوز لملك صنعت تركمـــــــــان
ما ملكو عثمانـــــــــي ولا ملوك العظما كانو زمـــــــان
وحلق ترضانـــــــــي بذكر ولهلل وموت لحســـــــان
وصحاب التجانـــــــي أشر من لا راهم بلعيـــــــــان
سر الله ربانـــــــــي بنوار سطع وطيب يخرق لذهـــــان
مولاي احمد سلطانـــــــي ربي فضلوا وارفع لصحابو الشـــــان
لقطب الربانـــــــــي يا ختم لولاي يا ينبوع للإحســــــان
نتوسل بلغانـــــــــي بجاه جدك يهدن هذا الوطـــــــان
تدمر لعديانـــــــــي تخمد نارهم ونار اهل لديــــــــان
بجاه لعدنانـــــــــي يعلا علامنا ويتجل هذى لمحـــــــان
يحضر اليمامـــــــــي وتجاهد لمسلمان كل ما في صعب هوان
مولاي احمد سلطانـــــــي ربي فضلو وارفع لصحابو الشـــــان

أما سيدتي الوالدة رضي الله عنها:

فهي المرأة الصالحة ذات المساعي الناجحة، والكرامات الواضحة،الذاكرة الناسكة الفاضلة. السيدة فروح بنت البركة المقدس سيدي الحاج عبد الوهاب بن محمد التازي. من الماسكات على حبل الذكر، والعاملات بمقتضى التذكر والذكرى في العلن والسر ، ولولا أنها أمي، ومدحي لها يرمي بي إلى مدح نفسي، بين أبناء جنسي، لوصفتها طبق ما شاهدته فيها، وما أتحققه من رفعة قدرها:

هي أمي في مدحها مدح نفســـي وامتداحي للنفس غير جميـــل
وجميل بالشخص أن يترك المــد ح بما فيه خوف طعن الجهـول

فإن الجاهل، بل والعالم الجاحد، أو القح المحض، يسبق إلى ذهنه في ذلك تزكية المرء نفسه، ويسيء الظن، فيبادر بالإنكار عليه في مثل هذا، ولا يقبل منه فيه أي اعتذار. وللخوف من الوقوع في ما هو من هذا القبيل ترك كثير من أهل الفضل ترجمة التعريف بأقاربهم، فضلا عن التعريف بأنفسهم، حتى لا تتطرق التهمة فيهم بأنهم يتبجحون بذلك بين العوام والخواص، ونحو ذلك مما يقضي به سوء النية، فلا يحصل النفع بذلك.

ولربما كان الضرر بذلك أكثر من نفعه عند المعاصرين، فاجتناب التعرض لذلك أجمل بالشخص وأليق به. ولذلك قيل: الشيء الذي لا يحسن أن يقال – وإن كان حقا – مدح الرجل نفسه، وهو كلام صحيح من جهة ما ذكرناه، سقيم من جهة كون أهل الفضل لم يمنعهم هذا الخاطر من إعطاء المقام حقه في ذكر ما لديهم من الخصائص والمزايا ونحو ذلك، تحدثا بالنعم، كما فعله الأنبياء والأولياء عليهم السلام. والإقتداء

بهم محمودا، وإن كانوا عليهم السلام في مكان مكين من الإخلاص الأتم، وقصدهم في ذلك النفع الأعم، وغير ذلك مما لا يخطر لنا ببال، وغيرهم بسوء القصد منهم.

فصار مدار الأمر في هذا كله على النية، وهي غيب، ولا يجمل بالشخص أن يحمل المتحدث بالنعم على التبجج وحب المحمدة ونحو ذلك، إلا إذا علم من نفسه ذلك، فليضرب حينئذ عنه صفحا، كما فعل كثير من العارفين وقوفا مع ظاهر قول الحق – فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى[1] – ونحن، وإن كانت نياتنا مشوبة بالحظوظ النفسانية، وهو مما يؤكد في حقنا الأمر بالإعراض عن التزكية بذكر المنن التي أمتن الحق بها علينا، ولكن قد يكون في ذلك منفعة أخروية بالتبع لتلك الحظوظ منها، بعد قصد التحدث بالنعم استجلاب محبة الناس في من له محامد ومحاسن تذكر، مع مناقب وفضائل وأعمال جليلة، وسيرة حميدة، وغير ذلك مما يرجع لأمور دينية ودنيوية في معاملته مع ربه، ومعاملته مع خلقه، فإن النفوس مجبولة على حب من تخلق بمثل هذه المكارم واتصف بها، بمجرد اطلاعها عن تخلقه بها، فإذا انجذبت بجاذبية المحبة صدح بالدعاء للمتصف بذلك، وقضت عليه المحبة بالانعطاف القلبي بأنواع البرور والإحسان إليه، ولمن انضاف اليه بقدر الإمكان، حسب البواعث الداعية إليه، بسبب ما اطلعت عليه من ذلك التعريف المشوب بالحظوظ النفسانية، بذكر مناقب الشخص وغيرها من أنواع التزكية والتمدح. وفيه من استنهاض ذوي النفوس للإقتداء بالمتصف بها ما يحصل به الغبطة بين أهل الفضل، وبين من هو لذلك أهل، فهذا ما حدا بنا لذكر مثل هذا في هذا الموضوع وغيره.

ولا يبعد أن يكون هذا من مقصد المصرحين بـــه، مع قصد آخر لاعلم للمنكر عليهم به، فيفوته حسن الظن بالعباد، ولا يحصل على المنفعة المنوطة بذلك، على أننا قد نستحسن شيئا ولا يروق في نظر غيرنا ما استحسناه، ولا لوم علينا في ذلك لوجود الفرق في الأذواق والمشارب "وللناس فيما يعشقون مذاهب".

ولهذا لا يتسارع العارف للإنكار علينا في التعريف بنفسي، في حديقة أنسي[2]، وهي رسالة لطيفة، كتبناها مساعدة لاقتراح بعض المحبين في جانبنا[3]، وأمليناها حسب ما تأتى لنا من غير تنميق في الخطاب، ولا تزويق مثل ما كتبناه في هذا التقييد في التعريف بسيدنا الوالد، مستطردا فيه الكلام بترجمة سيدتنا الوالدة رضي الله عنها.

ذكر ولادتها مع ترجمة والدها

فقد أخبرتني أنها ازدادت بفاس قبل وفاة المقدس السلطان المولى عبد الرحمن[4] بيسير، وكانت وفاته سنة ست وسبعين ومائتين وألف، وبعدها بيسير توفي والدها البركة سيدي الحاج عبد الوهاب بن محمد التازي، وهو أحد إخوته السبعة الذين أخذوا الطريقة التجانية عن القطب التجاني رضي الله عنه مشافهة، وقد ترجمت لبعضهم في كتابي "كشف الحجاب" وكتابي "رفع النقاب". وقد أنشأت هنا هذه القصيدة في جنابه، والتغزل المصدرة به هو في الطريقة التجانية، تبعا لوارد طرأ عليّ فيها، فقلت:

---

[1] سورة النجم، آية 32

[2] المراد به تأليفه حديقة أنسي في التعريف بنفسي، أدرجناه ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[3] المراد به السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ رحمه الله.

[4] المولى عبد الرحمان بن هشام، من ملوك الدولة العلوية الشريفة، توفي يوم الإثنين 29 محرم عام 1276هـ. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع لابن سودة 1: 217. الاستقصا، للناصري 9: 3_80. إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان 5: 1_274. الدرر الفاخرة، للمؤلف نفسه 7. موسوعة أعلام المغرب 7: 2614 . الأعلام، للزركلي 3: 341.

لماذا تلوم الصب يا خالي القلـــــــب ولو ذقت ما قد ذاق ذبت من الكرب
أمن كان ذا وجد كمن كان خاليـــــا وقد فقد الصبر الجميل مدى الحقب
بعيشك يا هذا إذا ذقت للهــــــوى مذاقا فلم أولا دع اللوم في الحــب
فما كنت أدري ما النوائب والبكـــا إلى أن تولت في النوى منية القلـب
ولم أتحمل مثل بعدي بعدهـــــــا ولا قبلها مثل الجفاء مع القـــرب
وزاد وشاتي في عيوبي عندهـــــا وأثر فيها ما رأته من الثلـــــــب
ولما دهاني ما دهاني ولم أجــــد لديّ شفيعا قلب حبي لها حسبـــــي
وأسلمت نفسي للقضاء ولم أجــــد عن الحب في وجدي كأني ذو جذب
وقد غاب عنها كشف حالي ولم تـزل وشاتي[1] تشي بالسوء بالقول والكتـب
وقد أكثروا فيما رموني به ولـــــم تزل بي تستقصي حوادث بي تنبـي
فبان لها أني المحب حقيقـــــــــة كحب التجاني عند جدي في الصحب
لقد كان جدي مخلصا فــــي وداده وعض على الحبل الموثق بالحـب
ولم يك للأغراض جدي عامـــــلا ولكنه قد جد في طاعـــة الـــرب
رأى الشيخ جدي جد في السير طالبا فلاحا فأعطاه من السر ما يسبـــــي
فصار به جدي بصدق عزيمـــــة به الله عنه قد نفى سائر الحجـــب
غدا عبد وهاب المواهب حائـــزا به قصبات السبق من حضرة الوهب
وأجلسه الشيخ التجاني بجنبـــــه وتوجه تاج الكرامة بالقــــــرب
فصار لدى الأصحاب ملحوظ رتبة بما قد سقاه الشيخ من مورد عــذب
وما زال بعد الشيخ فيهم معظمـــا محبته تزداد حبا على حــــــب
ووالدتي في الحب تابعة لـــــــه بصدق وحب الشيخ بين الورى وهبي
وها أنا ذا في حبه قد ورثتـــــــه وحبي له من أجل حبي النبي العربي
عليه سلام منتج لسلامتـــــــــي يعم جميع الآل مع سائر الصحـب
ونحمد ربي إذ هداني لحبـــــــه ولولا عموم الفضل لم يرتفع حجبي
وأسأله سبحانه أن يزيدنـــــــــي كمال وداد منه يحيي به قلبـــــي
ويمنحني دنيا وأخرى سعـــــــادة يتم بها قصدي ويمحى بها ذنبـــي

وتوفي رحمه الله، وترك والدتي في حجر والدتها التي كان تزوج بها حين رجوعها من سنة حجها مع زوجها الذي توفي في الحجاز في تلك السنة، وترك لها بنات أيست بسببهن من قبول من يتزوج بها بعده، فلم يكن إلا أن أخذت الشفقة قلب الجد المذكور رضي الله عنه، فتزوج بها متحملا لمؤونتهن، متكفلا بالقيام بشؤونهن، قاصدا بالتزوج بها صيانة الجميع، والتحصيل على امرأة صالحة، اطلع ما لها من المروءة والديانة التامة، والأحوال الصالحة التي قلما توجد في إمرأة ، والسفر معها صحبة الركب الحجازي أسفر له عن تلك الأحوال التي دعته إلى التزوج بها، فكان ببناتها بارا البرور التام ، حتى كنّ يعتقدن أنه والدهن، بما يرين من عظيم إحسانه لهن، وشفقته عليهن، حتى توفي وترك والدتي في وسطهن، يلحظنها بعيون المودة السالفة من أبيها لهن، فنشأت في عين الرضى.

يقول كاتبه عبد الكريم:
توفيت جدتنا السيدة فروح في صباح يوم الإثنين 24 رمضان المعظم عام 1345 هـ بفاس. وقد رثاها والدنا المقدس بقصائد أحببت أن أثبتها في هذا التوليف الذي أسماه رحمه الله " بالغنيمة الباردة بترجمة سيدنا الوالد مع سيدتنا الوالدة "

[1] الوشاة: جمع واشي و هو النمام.

أوالدتي بفقدك في وجدي ... أكابد[1] فيه ما أكابده وحدي
تناءيت مني واستقر بك النوى[2] ... وكنت بقربي لا تميلي إلى بعدي
فهل أنت تنوين الرجوع إليّ عن ... قريب أو الأمر الذي لم يكن عندي
حبيبة قلبي ما ظننت بأنني ... أراك قد استبدلت ودي بالضد
وكنت أظن القرب منك مسرمدا ... وظني أن تبقي وتخلفني بعدي
ولما رآني الدهر فيك مولها[3] ... وحبك لي يزداد أصبح من ضدي
فأقصاك[4] عني بعد طول تقرب ... تقر به عيناي في القرب والبعد
عهدتك عندي في رخاء وشدة ... رقيقة قلب منك في الحل والشد
تروحين في هم لأجلي وربما ... تقطع حبل الصبر منك بما أبدي
وتغدين في هم لأجلي عديمة ... لصبرك مما قد دهاك[5] من الوجد
ولازلت مني تحملين نوائبا ... بكل اهتمام بي لأظفر بالقصد
وتخفين عني ما تلاقين من عنا ... مخافة أن ألقاك في الألم المردي
وتبدين لي ما الله يعلم أنه ... من اللطف بي والقلب عندك في وقد
وعاملتني في كل حال برأفة ... على من أنا أبديه في الأخذ والرد
وما كنت لي وحدي بلطفك جنة[6] ... ولكن لكل الناس أكثرت في الود
رأيت لكل الناس أما وما أرى ... مثيلك أما في الحنانة والرفد
إذا قال منهم واحد آه مرة ... جزعت وأكثرت الدعاء بلا حد
أوالدتي والصبر عنك فقدته ... فهل جزعي من بعد موتك لي يجدي؟
فقدت أناسا كنت أفنى بحبهم ... ولم أر قبل اليوم مثلك من فقد
فها القلب مني في اضطراب يزيدني ... تنوع كرب من تواريك[7] في اللحد
بفقدك عني قد فقدت أحبتي ... وبعدك عنهم فيه لي غاية البعد
أ أبكي دماء ؟ والبكا غير نافع ... ولو دام طول الدهر يجري على خدي
ومالي أرى عنك اصطبارا عهدته ... وإن اصطباري عنك فيه انقضى جهدي
فوا أسفاه هل يفارقني الأسى ... ومالي آس فيه بالهزل والجد
لقد قام بي ما لا أقوم بحمله ... من الحزن حتى صرت في منتهى الحد
فها أنا ذا مستسلم فيك للقضا ... وليس لما يقضي به الحق من رد
وفيك أعزي النفس مني معزيا ... جميع أحبائي وأكثر في الحمد
ولله ما أعطى وإني عبده ... لراض بما يقضي على الحر والعبد
وأسأل منه أن يحفك بالرضى ... إلى أن تنالي السؤال في جنة الخلد

ورثاها أيضا بهذه القصيدة

خل عنك أذكار يوم الشباب ... فجميع الحياة مثل السراب
إنما هذه الحياة متاع ... عرضت للعقاب أو للثواب

---

[1] أكابد: أقاسي.
[2] النوى: البعد و الفراق.
[3] مولها: مضطرب العقل من شدة المحبة.
[4] أقصاك: أبعدك.
[5] دهاك: بمعنى أصابك.
[6] الجنة: الوقاية و السترة.
[7] توارى: بمعنى اختفى.

ليت شعري ما فاعـــــــل أنت فيهــــــا	لتراه بعــــــرض يــــوم الحســــــاب
أنت في غفلــــــــة تروح وتغــــــــدو	والهــــــوى قد دعاك مــــن ألف بـــــاب
فأجبـت الهــــوى بكـــــل اشتيـــاق	لم تفرق بيـــــن الخطـــا والصــواب
ورمــــاك الهــوى بكـــــل هــــوان	غير مكتــــرث[1] كمـــا قد رمى بـــــي
كـــــل يــــوم أقول أنـــي قطعــــــا	سأتوب غـــدا بغيـــر ارتيـــــاب[2]
فإذا ما أتـــــى غد قلت مـــــن بعـــد	غـــــد سأتوب حســـــــن متـــاب
لم أزل مقتـــاتا لســـــوف وما لــــــي	وازع[3] من نفســــي لكشف اكتئابـــي[4]
فمتى أرعـــــوى وما لـــي اتعـــــاظ	بذهاب أحبتــــــــي واغتــــــراب
كل يوم أنا المصاب و هـــــــذا الـــــــــــــــــيوم	عندي قد جل فيه مصــــــــابـــــي
قد أصبت و في مصابـــي مـــصـــيبـــــــــــــــات	و فيها جرعت أعظم صــــــــاب
قد أصبـــت بفقــــــد أم أراهــــــــا	خيـــــر أم بهـا احترام جنابــــــــي
يعلــم الله أنهــــا خيــــــــر أم	من رضاهـــــا لبست خيـــر ثيـــــاب
يا لقومــــــــي مـــن فقدهـــــا فأنـــا مـــن	فقدهـــــا قد فقدت كل صــــــــواب
آه ممـــــا أنـابنــــي غيــر أنـــــــي	لـم يكن آه نافعــــــي في منابـــــــي
أهـــــل ودي بالله هـــــــل أنتــــــم وفيــــتـم ببرورهــــــا فــــــي غيابــــــي	
هـل أقمتــــــم لهــــا مواســــم خير	فـــي قدوم منهــــا علـــى الوهــــاب
رب بالفضــــــل منــك أقبل عليهـــــــا	وأثبهـا لديــــــك خير ثــــــواب
سيــــدي سيــــدي وأمّـــن بفضـــــــل	خوفها اليوم ثـم يــــــوم الحســــاب

وقال في رثائها أيضا بانيا على بيت اتزن من كلام بعض من كاتبه برسالة في عزائها، ولم يقصد وزنه، وهو أثناء الدعاء لها:

قدس الله روحهــــــا فـــي نعيــــــــم	فــــــي جوار لسيــــد الســــادات

أول القصيدة:

آه ما بـــــــال القلب في غمـــــــــرات	قد توالت والنفس فـــــــي زفــــرات[5]
وكأنــــــي قـــــد صرت في عــــــالم	آخر ممـــــا أصابني مــــن سنــــــات
لست أدري مـــــــن شدة الأمر غيــــي	من أشادي فــــــي هذه الساعـــــــات
يا لقومـــــي مــــا ذا عرانـــي وعنـــدي	كنت أعهد فــــــي الملم[6] ثباتــــــــي
عيل[7] صبري بمـــا دهــــاني فمـــــاذا	يا ترى حـــــــل بي علــى غفــــلات
أصيــــــــاح ما قـــد نعى البرق لـــــي من مــــــوت أمـــي فصـــرت فـــي حســـرات	
إن يك البـــــــرق خلبـــــــا بعض أحيــــــــان فليس بخــلب فـــي الوفـــــــاة	

[1] غير مكترث: غير مبال و لا مهتم.
[2] الإرتياب: الشك.
[3] الوازع: الزاجر.
[4] الإكتئاب: الحزن و القلق.
[5] الزفرات: جمع زفرة، و هو التنفس مع مد النفس.
[6] الملم: الشديد من كل شيء، و المراد به هنا الملمات، و هي النوازل الشديدة.
[7] عيل صبري: بمعنى نفد و ضعف.

يـــا لقومي وقـــد رماني زماني ... فـــي حياتـــي بأعظم النكبـــات
لم يكن مثل فقدهـــا من مصـــاب ... جل بـــي قبلها من الصدمـــات
آه والقلـــب في تقلـــب أغيار عليهـــا منـــي مـدى أوقاتـــي
هـــل سلـو[1] فأشتـــريه ولكـــن ... كيف أسلـو عنهـــا بهذي الحيـاة
إنهـا كانت جنتي مـن زمـــان ... كان يسطـو علـــي بـالوثبات
إنهـا كانت جنتي أثمـرت لـــي ... فـي أمان كــل المنـى الطيبـات
كنـــت فـي ظلها محوطـا بحفـظ ... رافلا[2] فـي ردا رضـاها المواتـي
كنـت منهـا بمنزل الأنـس مثـل النـفس منـــي تنفس الكربـــات
لـم تكـن لـي وحدي تعاملنـي بالرفـق لكـن لسائـر العائـــلات
قلبهـا بالحنـان ممتلـئ بيـن جميـع السـادات والسيـدات
نفسهـا دائمـا تميـل لفعل الخيـر إذ كـانت منبـع الخيـرات
يشهـد الله أنهـا خيـر أم ... لبنيهـا مـن أكـرم الأمهـات
يشهـد الله أنهـا لجميـع النـاس تبغـي تكـاثر الحسنـات
بلسـان أحلـى مـن الشهـد تدعـو الله يرقـي الجميـع فـي الدرجـات
أي أم تغضـي[3] وترضـي وتمضـي ... وهـي تدعـو بالستـر للـزلات
عن عيـوب للستر تسـدل حجبـا ... عن عـيـون أحبـة وعـداة
وتقـابل من جفـاها بلطـف ... ومـن اللطف لـم تـدع من جفـاة
ولقـد كان همـها أمـر أخراهـا ... بدنيـاهـا مع حصـول النجـاة
(قدس الله روحهـا فـي نعيـم ... فـي جوار لسيـد السـادات)
وأراهـا الوجه الكريم وأعطـا ... هـا أمانا وسائـر الأمنيـات
سائـلا مـنه أن يقابلهـا طبـق مناهـا بأكمـل الرحمـات
وعلـى المصطفى أتم سـلام ... وعلـى الآل والصحاب الهـداة
وعليهـا مع الجميـع صـلاة ... وتحـايـا معها أتـم الصـلاة

وقال مجيبا الشيخ عبد الحي الكتاني[4] عن قصيدة من نظم ولده السيد عبد الأحد[5] في تعزيته في والدته:

جـاءت تعزيني وعينـي تدمـع ... وأنـا بمـا قـد هالنـي أتوجـع
جاءت ولـم أملك لنفسـي رشدهـا ... والحـال منـي بالمصـاب مـروع
نظرت لحـالي بعدمـا كنت تـرى ... أنـي لكل ملمـة لا أجـزع
فغـدت تكف بكفهـا دمعـي ولـي ... ترثي وقلبـي بالجوى يتقطـع
وغـدت تصبرنـي وحالـي زائـد ... والصبـر فيما نابنـي[6] لا ينفـع
ولقـد دهشـت لحالها إذ أقبلـت ... فـي حسنهـا والنور منها يلمـع
مـا كنت أحسبهـا تمن بعطفـة ... عن بغتـة والنفس منـي تضـرع

---

[1] السلو عن الشيء: نسيانه.
[2] رفل: جر ذيله و تبختر.
[3] تغضي عن الشيء: تسكت و تصبر عنه.
[4] سبق التعريف به ضمن الجزء   من هذه الرسائل.
[5] عبد الأحد بن العلامة المحدث عبد الحي الكتاني، فقيه أديب كاتب شاعر مفلق، توفي مقتولا برصاص الفدائيين يوم السبت 24 ربيع الأول عام 1375 هـ_10 نونبر 1955م. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 551. موسوعة أعلام المغرب 9: 3307.
[6] نابني: بمعنى أصابني.

فظننت أني في المنام رأيتها | وبوصلها ما كان قلبي يطمع
تلك التي قد زدت فيها لوعة | وبلوعتي[1] فيها أنا أتمتع
تلك التي في الحي أحيت مهجتي | وأنا لعبد الحي عبد يخضع
قد صرت خادم حيها من حبها | والحب يخفض من دعاه ويرفع
وأنا لعبد الحي خادمه الذي | بكمال صدق فيه لا أتزعزع
لم لا أكون له بصدق خادما | ولديه قلبي من يدي لي أطوع
بمحبة خلصت وكان نتاجها | صدق الوداد وحبله لا يقطع
و محبة بنيت على أس الإخا | أتظن أن حصونها تتضعضع
لا لا وحقك لا تزال مشيدة | ولها بباطني المقام الأرفع
وسرت محبتنا إلى أبنائنا | وله كمال الفضل فيها يرجع
ربط القلوب بحبل حب لم يزل | متجددا وبه المودة تزرع
من مثل عبد الحي وهو أبو العلا | وذووا العلا لعلاه حقا تخضع
إن قلت بدر فهو فوق البدر في | رتب ونور في الدياجي يسطع
أو قلت شمس فهو فوق سنائها | وبكل قطر نوره متشعشع[2]
أو قلت بحر فهو بحر قد حلا | من صدره عين المعارف تنبع
إني لأمدحه وأمدح أصله | مع نسله والفضل فيهم يجمع
من مبلغ عني إليه تحيتي | ولنجله ذاك الهمام الأروع
فلقد أتتني منه خير قصيدة | من ضمنها السحر العجيب الأبدع
جاءت على نسق به كشف العنا | عنا ومنها لي المسرة تطلع
جاءت تعزيني بحلو خطابها | فحلا بها لي ما أنا أتجرع
قد كنت في حزن وفي كدر[3] وفي | حتى أتت فأتى سروري أجمع
جاءت تعزيني فنلت بها المنى | وجنيت منها ما به أتمتع
لله درك يا ابن عبد الحي من | مبد لسحر أنت فيه المبدع
أبديت بل أبدعت في تنظيمك الدر الذي فيه المحاسن تلمع
سبحان من أعطاك صدرا واسعا لبحور شعر مع علوم تنفع
و وقاك من حزب الضلالة حيث ما كانوا و كان لهم لديك المصرع
هم باسمك الاحدى تشتت شملهم فغدا الجميع وقلبه يتقطع
فهم الطغاة حقيقة ومجازهم | يفضي بهم لردى بهم متوقع
وهم هم السفهاء في آرائهم | ضلوا وكل في الضلالة رتع[4]
هدموا مشيد المجد مما قد بنت | آباؤهم وجميعهم متنطع[5]
هضموا جناب الأولياء وحاربوا ال | حق الذي يعطي الجميل ويمنع
من ذا الذي يرضى بسب جدوده | ولبغضهم في كل قلب يزرع
أو ليس من فعل السفيه بأنه | يهدي سواه وفي الغواية[6] يركع
هذا لعمرك من سفاهة رأيهم | وجميعهم في دينه متضعضع[7]

---

[1] اللوعة: حرقة الحزن و الهوى و الوجد.
[2] تشعشع: انتشر ضوءه.
[3] الكدر: نقيض الصافي.
[4] رتع في مكان: أقام و تنعم فيه و أكل و شرب
[5] تنطع في الكلام: تشدق فيه، و المراد بالمتنطعين هنا أعداء أهل التصوف المحاربون لهم.
[6] الغواية: الضلالة
[7] متضعضع: ضعيف

لله درك لا تمــــــــــل لجموعهــــــــــم — فجميعهـــــــم عمــــــــا قريب يصـــــرع
والله يهـــــــدي منهم مـن قصـــــــــــــده — نصر الهـــــــدى وبقول حق يصــــــدع

الحمد لله الذي وهب الخير لأهله، وعمهم بفضله، فنطقوا بحمده وشكره، وعملوا بمقتضى انعامه وبره، في بحره وبره، فزادهم من نعمه، وحفهم برداء كرمه، وأدخلهم لبساط حضرة أنسه، وأجلسهم على كراسي المودة بين عوالم ملائكته وجنه وإنسه، وعرفهم بأنه أتحفهم بالقبول، في حضرة الوصول، بواسطة نبي الرحمة، سيدنا ومولانا محمد الذي هو الواسطة في كل نعمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وكل من هو معدود من أهل حبه، إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه فوائد جليلة، وأجوبة جميلة، جمعتها هنا من سيدتنا الوالدة، متعني الله برضاها، وقصدت بذلك استجلاب خاطر من يقف عليه لإكرامي وإكرامها بدعوة صالحة في ظهر الغيب، عسى أن يغفر الله لنا ما اقترفناه من الذنوب، ويستر ما لدينا من أنواع النقص والعيب. والله المسؤول أن يتجاوز عنا، وأن لا يواخذنا بما صدر منا، ويجعلنا في زمرة من أحبهم، فنظر إليهم بعين الرضى في الدارين، آمين.

سألت سيدتنا الوالدة رضي الله عنها عن سر البسملة والمقصود منها فقالت: البسملة حجاب، ومعنى كونه حجابا أنها تقي كل من قراها، وتقي ما قرأت عليه، وما علقت عليه، وإنها لحصن حصين لقائلها، وإن من كتبها مائة مرة وعلقها عليه، أو على غيره كان كمن علق حرز مرجانة المضروب به المثل في جلب القلوب، وهو حرز كانت بعض جواري بعض الملوك تسمى مرجانة تعلقه عليها، فكانت محبوبة عند الملك محبة كبيرة، وقد توفيت فكاد أن تتلف نفسه من الحزن عليها.

فالبسملة باب لا يتوصل أحد لسر ما في داخل الكتاب إلا بعد التحصيل عليها، ولذلك جعلت في أول الكتاب الكريم، حفظا لما في داخله.

وأفادتني رضي الله عنها في تثقيف ذوات السموم أن يقرأ الشخص (بسم الله الرحمن الرحيم عقدت بها ذنب العقرب، ولسان الحية، ويد السارق، بإذن لاإله إلا الله محمد رسول الله) وكذلك قراءة (سلام على نوح في العالمين[1]، وعلى سيدنا محمد في المرسلين) وهذا الذكر تواظب عليه سيدتنا الوالدة كل ليلة، وتنوي به حفظ نفسها وأولادها، وبحمد الله ما لدغتها حية، ولا لدغتها عقرب في عمرها إلى الآن، وكذلك جميع أولادها الذين من جملتهم كاتب هذه الأحرف إلى الآن ببركة قراءتها لذلك الذكر الشريف. إهـ..

[1] سورة الصافات، الآية 79

فهرست كتـاب: الغنيمـــة البـاردة، في ترجمــة سيدنــا الوالــد وسيدتنـــا الـوالدة.

<u>الصفحة</u>

1 ......المقدمـــــة
2 ......نشــــأته
3 ......ترجمة شيخـه الفقيـــه سيـــدي محمد بن الهاشمـــي
4 ...... ترجمة شيخه الفقيه سيدي الحـاج محمد بن المدني كنـــــــون
5 ......ترجمة شيخه الفقيه سيدي التهامـــي كنــــــــون
6 ......ترجمة شيخه مولاي إبراهيم العلوي اليزيدي
7 ......بيان معارفـــــه وفنونـــــــه
7.......حرفـتـــه الطـــرازية
8.......تعاطيه لحرفة التجارة
8.......خطته التوكيليـــة
8.......جهاده في الإسبان
9.......حجه لبيت الله الحرام
9.......زهده في الخدمات المخزنية
10......محبتـــه لأهـــــل الله وبغضـــه للإنكار عليـــهم
10......تحذيره من الدنيا وعدم ثقته بها
11........ وقوفـــه مع ماحد له شرعا
11.......عـــــــادتـــه مع أهلـــه
13.......عــادتـــه مـــع أولاده الذكـور
13.....عاداتـــــه مع بناتـــــه
14......عاداتـــــه مع الأضيـــاف
15......عادتـــــه في معاملته مع الأصهار والأقارب
15......عاداتــه في تحمله إساءة جيرانــــه
16......عاداتـــه في رياضة نفســـه في الخلوة والجلوة
16......عاداتـــــه في الصحـــة
16......عاداتـــــه في المرض
17......عاداتــه عند نزول الحوادث بـــــه
17......عادته إذا رأى جنازة أو سمع بها
17......عادته في زيارته للقبور
18......عاداتـــــه في أفراحـــه
18......عاداتـــــــه في الأعيــــاد
19......عاداتـــــه في يوم عاشوراء
19......عادتـــه في دخول الحمـام والخروج منه
19......عادته في النظر في المرآة
19......عادتـــــه في منامـــــه
20......عاداتـــــه في ملبســـــه
20......عادتـــــه في مأكلـــــه
21......عادتـــــه في الشـــرب
21......لاحـــــقـــة بالعـــــادات السابقـــة
22......خـــاتمـــــة

22......ومما قلته في شكر سيدنا الوالد رحمه الله
22......وقلت في مدحه رضي الله عنه
23......وقلت في الثناء على جنابه قدس الله روحه
24......وقلت في مدحه رضي الله عنه بعد وفاته
24......وقلت فيه أيضا :
25......وقلت أيضا:
25......وقلت في رثائه رضوان الله عليه
26......ذكر أشياء تتعلق بترجمته رضي الله عنه، منها أبيات في رثائه مع تاريخ ولادته
27......ذكر معارفه وما حصله من الفنون مع التضلع في فن الأحكام والنوازل، وعدد أولاده
27......ذكر قصيدة له بالملحون
28......ترجمة سيدتي الوالدة رضي الله عنها
29......ذكر ولادتها مع ترجمة والدها
30......ذكر قصيدة رثى بها والدته رضي الله عنها
31......ذكر قصيدة أخرى في رثائها أيضا
31......ذكر قصيدة أخرى في رثائها أيضا
33......وقال مجيبا لعبد الحي الكتاني في تعزيته إياه
35......فوائد جليلة جمعتها من سيدتنا الوالدة
36......فهرسة الكتاب